# رواية

# نظرة عشق

# الكاتبة

# مها النوبي

تدقيق لغوي: تقى البشلاوي

# المقدمة

في لحظة ما ستقابل أشخاصًا سيغيرون مجري حياتك للأبد، سيقلبونها رأسًا على عقب، منهم مَن سيكون بمثابة الغيث لقلبك ومستقبلك، ومنهم مَن سيجعلك تعض أناملك من الندم على معرفته، كلٌّ منهما سيغيِّر في قلبك شيئًا لن تستطيع أن تُعيده إلى نفسك مهما حاولت وفعلت وجاهدت، منهم مَن سيعطيك تلك الثقة في نفسك ويُنبت في قلبك الزهر، ولن يستطيع أحد بعده أن يسلبك ثقتك تلك مهما حاول، وعلى النقيض تمامًا منهم مَن سيُحطِّم قلبك ويسلبك أمانك تجاه البشر، نعم، تلك البراءة والطفولة الكامنان في يسار جنبك ستفقدهما، ستخشى كل شيء ولن تعد تثق بأحد، سيترك ندوبًا في قلبك لن تداويها الأيام مهما مرَّت، ستجعلك أنضج بكثير، وإن كنت من أولئك المحظوظين في هذه الدنيا فستعطيك الحياة حياةً ثانيةً تلملم بها شرخ قلبك وجروحه!

## إهداء

إلى أولئك الذين أخرجوا أجمل ما فينا، إلى أولئك الذين ثبتوا معنا برغم السوء الذي وُجِد بداخلنا، إلى مَن أصلحوا ذواتنا بكلامٍ لطيف أحيا كل جميلٍ فينا! إلى مَن حاولوا أن يخرجوا أجمل نسخة منَّا دون إشعارنا بنقصٍ داخلنا، هؤلاء فقط هم مَن يستحقون أن يُحمَلوا في أعماق قلوبنا!

# «الفصل الأول»

في أحد شوارع باريس تجلس فتاة في مقتبل العمر، تتأمَّل تلك الأوراق المتساقطة من غصون أشجارها وتلك الأشجار في كامل استسلامها لوداع تلك الأوراق؛ تلبيةً لفصلِ الخريف الذي مع قدومه كل عامٍ يُعلن لنا عن إمكانية البدء من جديد، والتخلي عن كل ما يكدِّر حياتنا من أشخاصٍ وأفكارٍ وغيرها، البدء في حكاياتٍ جديدة مع أشخاصٍ جُدد كَما البدء مع أحلام جديدة غير التي فقدناها، فكما تخلَّت تلك الأغصان عن أوراقها يمكننا نحن أيضًا التخلي عن تلك الرواسب الحمقاء بداخلنا والبدء من جديد.

تجلس تلك الفتاة ذات الزي المختلف عن أهل تلك المدينة فيتيقَّن الناظر إليها أنها فتاة غريبة عن ذلك البلد، فزيُّها الفضفاض وحجابها الطويل يدلان على أنها مسلمة ذات أصولٍ عربية، كما أنَّ بشرتها الخمرية وعيونها البنية تدلان عليها بجدارة.

والشاهد أيضًا أنَّ مَن ينظر لها يعتقد أنها في حالة استرخاء كامل، لا يدرك أنَّ ثمَّة صراع يُفتِّت رأسها.

تنظر تلك الفتاة إلى ساعتها فتهبُّ واقفةً في عجل وتغادر الحديقة؛ لتعود إلى منزل الطلاب، فهي -بالطبع- طالبة، تدرس الهندسة المعمارية في ذلك البلد.

تعود جويرية إلى ذلك المنزل الضخم الذي يضم معظم طلاب الجامعة من بنات وشباب، فالاختلاط في ذلك البلد على أشدُّه؛ مما يشكِّل صعوبةً لديها في التعامل، ولكنها حسمت موقفها منذُ أول يوم استقرت فيه في ذلك البلد أن

تحافظ على دينها وتلتزم بزيّها الفضفاض، فذلك حق الله عليها الذي منَّ عليها بالكثير.

قطع شرودها صوت صديقتها حسناء التي تكبرها بعامين وتدرس نفس التخصُّص.

- لماذا تأخرتِ كل هذا يا جويرية؟ ألم تقولي لي بأنكِ ستنهين دوامكِ الساعة الثانية ظهرًا والآن الساعة تعدَّت الرابعة؟ فما الذي كنتِ تفعلينه؟ وأين ذهبتِ؟ هيَّا اعترفي.

ورمقتها بنظرة تملؤها الخبث عند إلقائها السؤال الأخير.

ردَّت جويرية:

- لا شيء، ذهبت إلى تلك الحديقة التي تقع بجانب جامعتنا أردت فقط التفكير في بعض الأشياء.

باغتتها حسناء بسؤالٍ آخر وهي أعلم بما يُكدِّر حياة صديقتها:

- أهي تلك الأشياء التي تؤرِّق حياتكِ؟ فلتسمعي مني إذًا فأنا هنا منذُ عامين وأعلم قواعد البلد جيدًا، لن يجبركِ أحدٌ على فعل شيء لا تريدينه فأنتِ في باريس، إنَّها بلد الحرية، لستِ مجبرةً على ارتداء ملابس لا تريدينها، ولا أحد سوف يتعرَّض لكِ، إنَّهم يحترمون جميع الأديان فلا عليكِ.

ثم ربتت حسناء على كتفها قائلة:

- لا تقلقي صغيرتي، فأنا معكِ والأمور بخير، والآن سأتركُكِ لتبدلي ملابسكِ، فأنا أتضوَّر جوعًا وأريدكِ أن تشاركيني طعامي.

حمدت جويرية ربها على نِعَمه التي لا تُحصَى، وأنَّه وضع تلك الحسناء في طريقها، فهي فتاة جميلة محبة للخير تُعاملها وكأنها ابنتها وليست صديقتها.

بدَّلت جويرية ملابسها وذهبت لتصلي صلاة المغرب، ثم تشاركت مع حسناء طعامها فهي أيضًا تتضوَّر جوعًا.

بدأت جويرية تتخلَّى عمَّا يؤرقها، وتدعو ربها أن يثبِّتها، وكان الداعم لها في تلك البلد الغريبة هي صديقتها حسناء.

ما أجمل تلك الصداقة التي تستطيع فيها أن تتكئ على صديقك دون خوفٍ منه! تذهب إليه وقتما شئت؛ لتُخرِج معه ما كدَّر يومك وما يكدِّر حياتك فتجد عنده سلواك.. قد سطَّر قرآننا مدى وأهمية الصديق لصديقه في موقفٍ من أنبل المواقف في تاريخ البشرية، عندما اشتدَّ خوف سيدنا أبو بكر الصديق على صاحبه -معلم البشرية رسول الله- من أن يكتشِف مكانه كفار قريش، فردَّ عليه حبيب الله في آية من أعظم الآيات: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فما أعظم تلك الصداقات وأنبلها!

كانت جويرية تذهب إلى الجامعة وتعود تستذكر دروسها؛ لتثبت أنَّ المرأة المسلمة لا يمنعها حجابها عن الارتقاء والتعلُّم، بل يحثها دينها على ذلك؛ لذا قررت أن تغيِّر نظرة كل مَن يقابلها عن البلاد العربية والمرأة المسلمة تحديدًا -

المتخلفة في نظرهم- كان أساتذة الجامعة ينبهرون بها وبثقافتها ويتعجَّبون من كونها امرأةً مسلمة، فكان ذلك يحثُّها على المثابرة أكثر فأكثر.

ولكنها كانت تُصدَم كل يوم بالشباب المسلمين الذين تغيَّروا كثيرًا عن ذي قبل، أغرتهم الثقافة الغربية عن ثقافتهم الإسلامية بل والعربية، وأذهبت عقولهم ظنًّا منهم أنها الأفضل، فأصبحوا لا يصلون بل ويسهرون في تلك البارات الليلية، نظراتهم التي تملؤها التعجب عندما يرونها وكأنها من عالم آخر! عالمٌ قد اختفى منذُ زمن.

كانت تبوح لصديقتها حسناء بتلك الأشياء التي تراها فتَرْبت على يديها قائلة:

- أنتِ على حق، نعم هم مسلمون، ولكننا نعلم أنَّ أسماءهم فقط التي تدلُّنا على إسلامهم وليس أعمالهم، دعكِ من نظراتهم ولتستمري في إثبات أنَّ المرأة المسلمة هي امرأة قوية قادرة على التعلم والتفكير ليس المرأة المسلمة فقط بل المرأة العربية أيضًا، ولتصبحي مثالًا للخير والأمانة.

وفي إحدى المرات التي كانت فيها جويرية عائدةً إلى منزل الطلاب قابلها شاب مسلم كان زميلًا لها وأراد مضايقتها، فهي تعلم بأخلاقه السيئة والجميع يعلمها، كان يستهزأ بها قائلًا:

- انظري حولكِ، أترين جمال تلك الفاتنات؟! لماذا تغطين رأسكِ؟ يبدو أنكِ بلا شعر، ولِمَ ذلك الزيُّ الفضفاض؟ يبدو أنكِ سمينة الجسد ولا تريدين أن يرى أحد هذا، ثم تعالت ضحكاته وسط زملائهم.

وما كان منها إلَّا أن قالت له:

- هداك الله.

وغادرت المكان وفي قلبها غُصَّة تؤلمها بشدة، تلألأت الدموع في عينيها وأبت النزول، فدموع عينها قوية مثل صاحبتها!

ولكن ما إن عادت إلى حجرتها حتى انفجرت بالبكاء، فما الذي فعلته ليتحدث معها بتلك الطريقة البشعة؟ إنَّه شاب لا يعرف الإنسانية، فكيف يجرحها هكذا وسط حشد من الطلاب؟ ولِمَ لم يدافع عنها أحد؟ أيخشونه؟! وماذا عنها؟

جاءتها حسناء مسرعةً عندما علِمت بأنَّ ذلك الشاب الذي لا يجرؤ أحد على التصدي لأفعاله قد تشاجر مع صديقتها الصدوق جويرية، ما الذي يريده فارس من تلك الفتاة الطيبة ذات السجية الجميلة؟!

فما كان من حسناء إلا أن احتضنت جويرية لتهدئها قائلة:

- لا عليكِ يا جويرية، فالأشواك كثيرة في كل مكان، ولكنها ليست من الغرب إنها من أصلابنا، من أبناء بلدتنا، إنهم يرون تميّزكِ كثيرًا عنهم؛ لذلك فعل ذلك، أنتِ فتاة قوية فلتتحملي، فقديمًا قالوا: "الكلاب تعوي والقافلة تسير" أليس كذلك؟!

هدأت جويرية لتكمل ما جاءت هنا من أجله، هدأت لأنَّها لا بُدَّ لها وأن تهدأ، فهي مَن تركت بلدها وأسرتها وحياتها من أجل حلمها، ألَا يستحق منها ذلك أن

تهدأ الآن، وألَّا تلتفت لأحد سوى دراستها وحلمها الذي قطَّعت الغربة فؤادها لأجله؟!

# «الفصل الثاني»

بدأت الأيام تنتهي تلو الأيام، إلى أن رأت رسالةً على جوالها من ذلك الشخص الأحمق، نعم.. إنَّه فارس، ذلك الشخص الذي لا يتركها وشأنها ولا تأخذ راحتها من تنمُّره عليها وعلى لباسها الفضفاض وكأنه عُيِّن جنديًّا من جنود إبليس!

أرسلت له ردًّا: ماذا تريد مني؟! ألَا تتركني وشأني؟!

ردَّ فارس بكبر وعجرفة: ومثلي ماذا يريد من مثلكِ أيتها المتخلفة الجاهلة؟! ما الذي أتى بكِ إلى بلد الحرية؟! مثلُكِ لا بُدَّ له من الجهل، يجلس دون عمل ولا تعليم أيتها الحمقاء!

ردَّت عليه قائلة:

- حسنًا أيُّها الجندي من جنود إبليس، سأقول لك مَن أنا وبعدها وإن لم تتركني وشأني لا تلُم إلَّا نفسك!

تفاجأ فارس من حديثها فظنَّ أنها ستلتزم الصمت كما السابق! وصُعِق من ردها عليه عندما أرسلت له:

- أنا جويرية المغربي، أنا المرأة المسلمة، وأنا الغريبة في أرض الله، وأنا حاملة لواء ديني أيها المتعجرف، وأنا أم محرر الأقصى، وأنا القابضة على جمر ديني، أيُخيَّل لك أيها المتعجرف أنني أجهل الموضة أو لمسات مستحضرات التجميل التي تضعها الفتيات؟! أيُخيَّل لك أنني لا أستطيع ارتداء تلك البناطيل المقطَّعة والفساتين العارية؟! يا لبلاهة تفكيرك أيها المتعجرف! إنني مسلمة، أتعلم ما هو الإسلام؟! أم إنَّه كُتِب في بطاقتك فقط؟! أنا أعلم أنَّ كل شيء له معاد، وأنَّ

جمالي لا يراه إلَّا مَن سيكتبه الله لي؛ لذلك فإن اعترضت طريقي مرة أخرى فسترى مَن هي المرأة المسلمة التي لا تخشى سوى ربها، فلا سلام عليك أيُّها الجندي من جنود إبليس.

لا تدري جويرية كيف أتتها تلك الشجاعة وكيف تحدَّثت هكذا، ولكن كان لا بُدَّ وأن تضع حدًّا لذلك الفارس قاسي الطباع عنيد القلب.

لم تصدِّق حسناء ما فعلته جويرية، فحدَّثتها قائلة:

- كيف فعلتِ كل هذا يا جويرية؟ يا لكِ من شجاعة، ولكنني أخشى عليكِ منه!

ردَّت جويرية:

- كان لا بُدَّ لي أن أفعل ذلك وإلَّا كان سيستمر في تنمُّره عليَّ، أسأل الله له الهداية.

فغرت حسناء فاهها متعجبةً من دعاء جويرية لفارس، فسألتها قائلة:

- كيف يا جويرية فارس إنسان مهتدي! أظن أنكِ تمزحين قليلًا!

- نعم، أعلم أنَّ فارس قاسي الطباع، ولكن الله قادر! فعمر بن الخطاب كان أشد عداوةً للمسلمين، ولكن الله هداه وأصبح الإسلام عزيزًا به فلمَ لا؟! أتعلمين؟ لقد قرأت في أحد الكتب إنَّه عندما يحين يوم القيامة سيحدث أمرًا غريبًا وهو أنَّ الإسلام سيذهب إلى سيدنا عمر ويقول: يا ربي، كنت غريبًا

فأصبحت عزيزًا بفضل عمر بن الخطاب، أتتخيَّلين جمال الموقف؟! كان أشد عداوةً للإسلام، ثم أصبح الإسلام عزيزًا به!

انبهرت حسناء من حديث جويرية وسماحتها وكلامها الذي ينمُّ عن شخصية طيبة القلب، فقالت لها:

- يا لجمال ذلك الموقف، فاللهم اجعل الإسلام عزيزًا بنا.

ذهبت جويرية إلى الجامعة لأول مرة بعد أن راسلت فارس بتلك الرسالة، نظر فارس إليها، ولكنها شعرت به ينظر إليها نظرةً غريبةً لم تعهدها عليه من قبل!

مرَّت الأيام تلو الأيام لتتفاجئ جويرية كالجميع بنقل فارس أوراقه إلى جامعة أخرى؛ ليكمل بها دراسته، فلم تُحْدِث أي ردة فعل سوى أن دعَت له بالهداية.

# «الفصل الثالث»

مرَّت الأيام سريعًا ولا أحد يجرؤ على مضايقة جويرية بعدما ترك فارس الجامعة، وكأنه هو مَن كان يدعوهم لذلك!

حلَّ شهر رمضان هذا العام أثناء امتحانات كلٍّ من جويرية وحسناء، فحاولتا أن تبذُلا قُصارى جهدهما من أجل أداء العبادات وعدم التقصير في المذاكرة.

مرَّ شهر رمضان بسلام وجاء العيد، لتقرر كلٌّ من حسناء وجويرية الذهاب للتنزُّه وقضاء يومٍ سعيد بعيدًا عن ضغط العالم.

قررتا الذهاب إلى حدائق لوكسمبورغ، تلك الحدائق التي تُميِّز باريس عن بقية أقرانها من المدن، فهي تحتوى على صالات رياضية وأماكن للتنزه بالإضافة إلى العديد من قاعات الموسيقى، يوجد أيضًا بها أماكن للأطفال حتى يلهون والعديد من المقاهي، إنَّها تشبه قطعةً من الجنة!

- هيا بنا يا حسناء إلى الصالات الرياضية، فأنتِ تعلمين كم أنني أعشقها!
قطبت حسناء حاجبيها قائلةً:

ولكنني أحب الهدوء، فلتذهبي أنتِ وأنا سأظل أتلذَّذ بتلك اللوحة الفنية من أشجار شديدة الخضرة، فهي مريحة للأعصاب.

- حسنًا يا حسناء، فلتستمتعي إذًا.. إلى اللقاء.

جلست حسناء لتنعم بما تراه حولها ولتهدئ روحها بمهدئ ربَّاني شديد الروعة، ولكن أنَّى تهدأ وتلك الذكرى لم تتركها يومًا تنعم؟! نعم، تتذكَّر ذلك اليوم إلى الآن، قد مرَّ عليه أكثر من أربعة أعوامٍ، ولكنها تشعر وكأنه البارحة، تتذكَّر ذلك

الوغد الذي خانت ثقة والديها من أجله، تتذكَّر كيف إنَّه خدعها تحت مُسمَّيات مزيفة!

- حسناء، من الآن فأنتِ في طريق وأنا في طريق.

تفاجأت حسناء من كلام أحمد، وظنَّته في البداية يمزح معها قليلًا، ولكنها اصطدمت من حديثه الجاد، فقالت متودِّدةً له:

- لماذا يا أحمد؟ هل أخطأت في حقك؟ ما الذي فعلته لتقول ذلك؟!

- لم تفعلي شيئًا يا حسناء، ولكنكِ ببساطة تخونين ثقة أهلكِ فكيف لي أن أثق بكِ بعد الآن؟! كيف لي أن أثق بأنكِ ستكونين أُمًّا لأطفالي؟!

كلامه فتَّت قلبها، ولكنها تماسكت قائلة:

- ولكنك تعلم أنَّني أحبك، لذلك فعلت هذا!

- لا يا حسناء، أنا لم أعد أثق بكِ بعد الآن فلترحلي؛ لأنني سأخطب عمَّا قريب فتاةً حسنة الأخلاق.

تساقطت دموعها التي خذلتها كما خذلها ذلك الوغد، وقالت بصوت تشوبه السخرية:

- وكيف لك أن تعلم يا أحمد أنها حسنة الأخلاق؟ فما يُدريك لعلها كانت ضحيةً لإنسان وغد مثلك؟!

- فلتحفظي لسانكِ يا حسناء، إنها معرفة والدتي ووالدتي لم تخطئ يومًا؛ لذا أحذركِ من محادثتي مرة أخرى.. إلى الوداع!

تذكَّرت في تلك اللحظة أخيرًا أنها كانت خائنةً لوالديها من أجل وغد لا أكثر، نعم، هي تستحق كل هذا، فهي لم تُنصِت لكلام صديقتها، نعم، لقد اتبعت الهوى وهكذا كانت النتيجة.. قلب مُحطَّم ودموع حارة وندم يتآكل صدرها منه! كيف خُيِّل لها أنَّها ستأخذ ما عند الله بمعصيته!

نعم، هي مَن جعلت أحدهم يستبيح عُذرية مشاعرها دون أي وجه حق، تذكَّرت الآن حديث رسول الله ﷺ: "إياك أن تفتحه إن تفتحه تلِجه" لقد ظنَّت أنها تتحكَّم في نفسها، وهكذا كانت نتيجة أعمالها!

لم تجد ركنًا تركن إليه في هذا الوقت سوى صديقتها، بل حبيبتها التي لطالما نصحتها بأن تلك العلاقات نهايتها مأساوية، لطالما حذَّرتها من ذلك الوغد، لطالما ذكَّرتها بالله، ولكنها لم تنصت، ذهبت إليها وارتمت بين أحضانها لتبحث عن نفسها التائهة منذُ أن تعرَّفت على ذلك الوغد.

انتظرتها فاطمة حتى تهدأ تمامًا، وهنا بدأت كلامها، تتذكَّر حسناء تلك الكلمات التي هدأت رباط جأشها حينها، تذكَّرت كيف أنَّ تلك الكلمات أثلجت صدرها.

تساقطت دموعها وهي تتذكَّر تلك الكلمات التي كانت بمثابة حصن يُبنَى من جديد لعفاف قلبها!

- حبيبتي حسناء، ألَا تعلمين أنَّ الله يحبكِ لذلك أراد لكِ أن تتذوقي ألم الفراق؟! هو يريدك له ومعه دائمًا، هو ينتظركِ في كل وقت حتى الآن وأنتِ في قمة يأسكِ، يعلم أنكِ تملكين قلبًا بريئًا، يريدكِ أن تعودي له، فما آن لكِ أن تعودي..

- ولكن هل سيقبلني؟

- نعم، سيقبلكِ، ومَن غيره ملاذ المحتاجين؟ مَن غيره يرحم ضعفنا وقلة حيلتنا؟! فلتعودي فتاةً عفيفةً كما عاهدتكِ قبل معرفة ذلك الوغد.

- ألديَّ فرصة لأن أعود عفيفة؟!

- نعم لديك، فالعفة هي أن تتوبي إلى الله توبةً نصوحة، أن تعلمي أنَّ حجم خطأكِ وأن تجاهدي ألَّا تكرريه ثانية، بابه مفتوح لكِ فلتتعجلي لتتوبي له.

نعم، لقد تذكَّرت حسناء كل تلك الكلمات التي ما زال إيقاعها في أذنها، ما زالت تتقوى بتلك الكلمات وتجاهد لتنسى، ولكن هل ستنسى جزءًا من حياتها؟! إنَّ مرارة الذنب تبقى ولو بعد حين، تبقى لتنهش قلوب المؤمنين حتى ييأسوا من رحمة الله!

***

على الجانب الآخر

ثَمَّة شاب يتذكَّر تلك الكلمات اللاذعة التي قالتها له تلك الفتاة، إنَّه فارس، ذلك الشاب قاسي الطباع -كما يظهر للآخرين- تتصارع الأفكار في رأسه، أهو حقًّا مثلما قالت جندي من جنود إبليس؟! أهو مسلم بالاسم فقط؟! نعم، إنها على حق فهو لا يعرف شيئًا عن دينه!

إن كان مسلمًا حقًّا فلِمَ يكره ذوات الزي الفضفاض! لِمَ كان يضايق تلك الفتاة؟ أهي على حق أم إنَّه على حق؟ وأنَّ تلك المتخلِّفات المتعجرفات متشددات كما يسمع دائمًا من المحيط الذي كان يعيش فيه! تضاربت الأفكار في رأسه حتى آلمته بشدة، ولكنه قرر وعزم على البحث عن الحقيقة حتى يهدأ ذلك الصوت بداخله.

تذكَّرت جويرية تلك النظرة الأخيرة التي نظرها فارس لها في آخر لقاء بينهما، كانت نظرةً مختلفة، أهي نظرة عتاب أم لوم أو ربما ندم على ما فعله بها؟! لكنها لا تدري لِمَ نظر لها هكذا، وكأنه يقول لها: أمسكي بيدي لا تتركيني، أريني الطريق الحق فأنا لا أعلم، أنا جاهل، فلتكوني نوري الذي يضيء عتمة الطريق حولي!

قطع شرودها قطعة من الحديد التي وقعت على رجعلها لتتألم في صمت، لمَ تفكرين به أيَّتها الحمقاء فهو الآن ليس معكِ ولن يكون فلتنسيه إذًا.

مسحت حسناء دموعها دون أن يراها أحد، ولكنها لم تلاحظ تلك العين التي كانت تراقبها منذُ جلوسها في ذلك المكان، تلك العيون التي شاهدت الحزن الكامن داخل تلك الفتاة ولا تعلم سببه، تلك العيون التي شاهدت بسمات تخفي الكثير من الألم!

قطع شرود الجميع صوت جويرية وهي تنادي على حسناء بأن تأتي؛ لترحلا، فقد تأخَّر الوقت كثيًرا.

عادتا معًا ولكن بداخل كلٌّ منهما حكايات تُخفَى عن الأخرى!

تلك اللحظات التائهة التي تكدِّر صفو البشر، لحظات تأتي لتجعلك في حيرة من أمرك، ربما تكون تلك اللحظات سببًا في اتخاذك الخطوات الصائبة أو رُبَّما تهلكك دون أن تعلم لِمَ أتت تلك اللحظات وما الذي تريده!

# «الفصل الرابع»

وماذا إن أتتك أحلامك على طبق من ذهب؟ ماذا لو حدث كل ما تمنيت؟ ماذا لو حصلت على فرصة العمر كما يسمُّونها، تلك الفرصة التي لا تُعوَّض.

وجاءت تلك الفرصة تَلُوّح في أُفق فاطمة، تلك الفتاة المرحة والمجتهدة في نفس ذات الوقت.

تَهَلَّلت أسارير وجهها فرحًا عندما رأت ذلك الإعلان على جريدة ضمن الكثير من الجرائد التي تُعلن عن وظائف جديدة، ولكن أيُّ شركةٍ تلك التي تعلن عن وظائف جديدة، إنَّها شركة الأحلام تلك الشركة التي تَمَنَّت فاطمة العمل بها منذُ أن كانت تدرس في الجامعة، إنها من أكبر الشركات على مستوى العالم في البرمجة.

سارعت بملء استمارة التقديم الإلكترونية وبعدما انتهت ظلَّت تفكر كيف لها أن تُقبَل في شركة كبرى كشركة «البنهاوي» الكل يتمنى العمل بها؛ لما لها من سُمعة جيدة على مستوى العالم، ولكنها توكَّلت على الله وقامت بتجهيز الـ c.v استعدادًا لمقابلة القبول أو ما يسمُّونه بالإنترفيو.

وبينما كانت شاردةً في تفكيرها قطع ذلك الشرود صوت والدتها التي سألتها ماذا بها!

ردَّت فاطمة:

- حُلمي يا أمي، حُلمي أن أكون ضمن فريق عمل «شركة البنهاوي» صار قريبًا ولكنني خائفة، خائفة جدًّا يا أمي.

- لا تخافي يا ابنتي فأنتِ مجتهدة، قد تفوَّقتِ في جميع مراحل تعليمكِ، أنتِ كنتِ دائمًا ما تحصلين على المركز الأول في جميع سنوات الجامعة، كيف يرفضون مهندسةً ماهرةً مثلكِ! لا عليكِ، فلتتوضئي ولتدعي الله أن يكون بجانبكِ.

صمتت الأم قليلًا وكأنها تفكر بشيء خطر على بالها في تلك اللحظة، ثم قالت:

- يا فاطمة، لِمَ لا تسألين عمر ابن خالتكِ؟ ألَا يعمل بإحدى فروع تلك الشركة في باريس؟ إنَّه سيفيدكِ كثيرًا.

اهتزَّ قلب فاطمة عند ذكر اسم عمر، ذلك الشاب الذي أحبته منذُ نعومة أظافرها، نعم، لم ترَه منذُ ما يقارب الثلاثة أعوامٍ، ولكنه غادر البلاد ومعه قلبها الذي أعفَّته كثيرًا حتى يرى الحب في وضح النهار، فهي لا تحب أن تكون كاللصوص الذين يستيقظون فقط في ظلام الليل الدامس، وبينما هي هائمة في تفكيرها أفاقتها كلمة والدتها: "سأحدِّثه غدًا لكِ لعله يفيدكِ فلا تخجلي". فهي تعلم خبيئة أميرتها منذُ زمن.

# «الفصل الخامس»

جاء اليوم الذي يفصل فاطمة عن موعد المقابلة الشخصية (الإنترفيو) بأربع وعشرين ساعة.

قامت والدتها في تلك الفترة بإقناعها لتتحدث مع عمر دون خجل، فهي ستتحدَّث عن عمل وهي ستكون معاها فلا تقلق، وبالفعل وافقت فاطمة على مضضٍ منها فهي تعلم حال قلبها عندما تسمع اسمه، فكيف بحالها عندما تحدِّثه الآن! وهي التي لم تحدِّثه منذُ ثلاثة أعوام أو أكثر.

استجمعت شجاعتها وحدَّثته، وعندما انتهيتا قال عمر لوالدتها:

- لا تقلقي يا خالة، فلفاطمة مستقبل مشرق؛ لأنها ذكية وطموحة.

شكرته والدتها وانتهى الأمر.

داخل شركة البنهاوي للبرمجة

كان حلم فاطمة يلوّح في الأفق، حُلم يراودها منذُ أعوام والآن جاء وقت تحقيقه! لا تدري كيف تمالكت أعصابها وقررت أن تكون قوية، فهو حلمها ولا أحد سيحقِّقه غيرها.

جاء موعد المقابلة الشخصية واهتزَّ قلب فاطمة قلقًا، وقطع خوفها صوت سكرتارية نائب المدير بأنه ينتظرها في المكتب، فدخلت ودقات قلبها تسمع الشركة بأكملها.

- تفضلي يا بشمهندسة فاطمة، نأسف على تأخير موعد المقابلة، ولكن حدث ظرف طارئ؛ لذا فأنا مَن سأقيِّم التحاقكِ بشركتنا.

ابتسمت فاطمة وقلبها يعلو ويهبط من شدة توترها، لاحظ ذلك عامر -نائب مدير الشركة- وقال:

- فلتهدئي يا بشمهندسة فـ "c.v" خاصتكِ رائع، أنتِ فتاة مجتهدة حصلتِ على المركز الأول طوال فترة جامعتكِ، فهذا رائع!

كانت فاطمة طوال تلك الجلسة واثقةً بنفسها أو تحاول أن تظهر ذلك، بينما عامر يتفحَّص الأوراق ويُلقي عليها بعض الأسئلة كما المعتاد في مثل تلك المقابلات، لم يرفع عينه قط فيها وعندما انتهى استأذنها بالخروج وبأنَّ أحدًا سوف يتواصل معها؛ ليبلغها بقبولها بالشركة، وما إن رفع عينه فيها حتى صُعِق من هول المفاجأة!

صُدم عامر ممَّا رآه عندما نظر إلى فاطمة، فما لبث أن قال:

- مريم!

- ماذا؟! مَن مريم؟ أنا فاطمة.

تدارك عامر خطأه وبادر بإصلاحه قائلًا:

- لا أبدًا تفضلي يا مهندسة فاطمة وسيأتيكِ الرد بعد يومين بإذن الله.

خرجت فاطمة وهي تتعجَّب من أسلوبه، ولكنها تناست الأمر فما يشغل تفكيرها الآن هو أن تصبح جزءًا من فريق تلك الشركة.

عامر لا يعلم كيف حدث ذلك، كيف لفاطمة أن تكون شبيهة خطيبته مريم! والتي توفِّيت في حادث سيارة منذُ أعوام مضت!

لقد هدمت رؤيته لفاطمة محاولاته لنسيان خطيبته كل تلك الأعوام، إنها وبدون أن تشعر جعلت جراح قلبه تصحو من جديد؛ لتُعلن له إنَّه ما زال على العهد وفيًّا، لم ينسَ تلك المريمية التي أحبها وقد عاهدته أن تبقى معه دائمًا، ولكنها أخلفت بوعدها فأين هي الآن؟! يعلم جيدًا أنَّ هذا كان قدرًا، ولا بُدَّ أن يتعايش معه، ولكنه لا يستطيع، فحبها يملأ كيانه كله، هو ما زال يودُّ أسرتها من حين لآخر، فهم أحبابها وأحباب حبيبته أحبابه.

تذكَّر أول مرة رآها فيها وهي في الجامعة كانت معه، تذكَّر عندما وضع خاتمه في إصبعها لتصبح مِلكه مدى الحياة، ولكن الحياة متى تصفو لأحد؟!

تأتي دائمًا الرياح بما لا تشتهي السُّفن، فأتت رياح الدنيا بما لا تشتهيه نفسه وخطفت حبيبته على حين غُرَّةٍ منه، فأنَّى ينسى قلبه هواها؟!

عادت فاطمة إلى بيتها وأخذت تدعو كثيرًا أن تكون ضمن المقبولين، وكانت والدتها تهدِّئها وتقول لها إنَّ الله لا يضيع أجر مَن أحسن عملًا، وهي أحسنت وأتقنت عملها وفعلت كل ما في وسعها، فإن كان خيرًا لها هذا العمل فسوف يرزقها الله به، وإن كان غير ذلك فلتحمد الله؛ لأنَّ أقداره دائمًا لُطف بنا!

أحسنت فاطمة الظن بربها، وما كان منها إلَّا أن تتصل على رفيقة دربها حسناء، تلك الفتاة الوحيدة التي ما زالت معها؛ فهي تحبها كثيرًا.

ردَّت حسناء على مكالمة فاطمة قائلة:

- أهلًا أهلًا بحبيبة قلبي، فلتحكي لي كيف كان يومكِ وكيف كانت المقابلة؟ هيا فأنا منتظرة على جمرٍ من نار منذُ الصباح.

ضحكت فاطمة من طريقة حسناء العفوية وأخذت تحدِّثها عن الشركة وعن تلك الأسئلة، وفي وسط المحادثة صمتت قليلًا لتُباغتها حسناء بسؤال قائلة:

- ماذا بكِ؟ أحدَث شيء؟!

- نعم، لقد حدث شيئًا غريبًا في آخر تلك المقابلة، إنَّه السيد عامر ناداني باسم مريم وعندما تعجَّبت منه توتَّر كثيرًا واعتذر وقال لي: لا أقصد، فلتتفضلي، وبعد يومين ستصلكِ رسالةً عبر بريدكِ الإلكتروني بقبولكِ باذن الله.

ردَّت حسناء: وما الغريب في ذلك؟ ربما نسيَ الاسم فلا تشغلي بالكِ، الأهم هو حُلمكِ، فأتمنى أن تحقِّقيه وأن يسعد الله قلبكِ.

ردَّت فاطمة والأمل يملأ عينيها والتفاؤل يبدو جليًّا في صوتها:

- أتمنى ذلك يا حسناء، أتمنى أن يتحقَّق ذلك الحُلم الذي يُراودني منذُ زمن، هيا سأترككِ الآن، في رعاية الله.

- في رعاية الله يا فاطم القلب.

**بعد مرور يومين..**

وصلت رسالة إلى بريد فاطمة تفيد بقبولها في تلك الشركة، وعليها أن تأتي في الموعد المحدَّد لتبدأ فترة تدريبها.

فرحت فاطمة بذلك الخبر كثيرًا، ودَعَت الله أن يكمل عليها سعادتها ويجمعها بابن خالتها عمر، ذلك السر الذي تحفظه في صدرها وقلبها ولم تخبر به حسناء وهي أعز صديقاتها، بل لم تخبر به أحدًا على الإطلاق سوى ربها.

ذهبت فاطمة لتلك الشركة لتتلقَّى تدريبها على يد أفضل فريق في هذا المجال، وبدأت في تحقيق أول خطوة نحو حُلمها وصمَّمت على أن تكون جديرةً بالعمل في تلك الشركة، حتى تترقى أكثر وأكثر؛ لتكون مثل حبيب روحها فهو مجتهد جدًّا وهو قدوتها منذُ زمن، وحُب طفولتها ومراهقتها وما زال!

# «الفصل السادس»

قامت جويرية فزعةً تلهث من الخوف، ضربات قلبها زادت كثيرًا في رأسها، تلك المشاهد التي رأتها في ذلك الكابوس، تتذكَّر فارس وهو ينظر لها نفس تلك النظرة التي نظرها لها منذُ آخر لقاء بينهما، إنَّه في مكان مظلم وكأنه يستغيث بها، نظراته جعلت قلبها ينتفض ماذا به؟ وكيف تراه الآن في حلمها؟! أهو بخير أم به أذى؟! لم تملك له سوى الدعاء، وكيف تملك أكثر من ذلك؟! ظلت تدعو له بأن يكون فقط بخير!

في حدائق لوكسمبورغ

تلك الحديقة التي تعشقها حسناء وتحب الذهاب إليها كثيرًا، في نفس ذات المكان تجلس لتهدئ أعصابها قليلًا فهي من محبى التأمُّل، وتلك الحديقة تريح صدرها وقلبها كثيرًا، كما أنها اعتادت على زيارة تلك الحديقة يوم الأحد منذُ أن جاءت إلى باريس.

هناك عيون تراقبها بصمتٍ منذُ عامين، وقد حان الوقت لتلك العيون أن تفصح عن صاحبها، ذلك الشاب الذي رأى حسناء منذُ عامين تقريبًا وهي تأتي لنفس المكان في موعد محدَّد من كل أسبوع، نعم.. كان يراقبها حتى عرف عنها الكثير والآن قرر أن يفصح عن هُويته!

تفاجأت حسناء عند قدوم أحدهم إليها ليسألها لِمَ كل ذلك الحزن القابع في عينيها؟ عندما سمعت سؤاله تجمَّدت أطرافها وكأنَّ أحدهم سكب عليها مياه شديدة البرودة!

لتُجيبه:

- مَن أنت؟ وما هذا التدخُّل في شؤون الآخرين؟!

كانت لهجتها حادةً أصابته بالتوتر، ولكنه تماسك ليجيبها عن تلك الأسئلة:

- حسنًا يا بشمهندسة حسناء، أليس هذا اسمكِ؟ سأجيبكِ عن أسئلتكِ رغم أنكِ لم تُجيبيني، ولكنني طيب القلب ولذا سأجيب.

مَن أنا؟ حسنًا.. أنا البشمهندس عمر كامل، أعمل هنا منذُ ثلاثة أعوام في أحد فروع شركة البنهاوي الموجودة في تلك المدينة، ولا أخفي عليكِ لقد رأيتكِ منذُ عامين وكنت أراقبكِ حتى علِمت عنكِ كل شيء، وحتى لا أضيّق عليكِ فإنني لا أنوي إلا كل خير، فقط أحتاج موافقتكِ على التقدُّم لخِطبتكِ أيتها الأميرة، فما رأيكِ؟

- أجد أنك تمزح، فمَن العاقل الذي سيخطب فتاةً لمجرد أنَّه راقبها؟! دَعني وشأني.

- لا، لن أدعكِ، أودُّ فرصةً فقط لأثبت حُسن نيتي، علِمت عنكِ الكثير، لذا سأعطيكِ فرصةً لتفكري في الأمر، وأودُّ إخبارك أيضًا أنَّني شخص ناضج ولو لم أعلم عنكِ الكثير لما أخذت تلك الخطوة، سأغادر الآن؛ لأنه يبدو أنكِ مصدومة فسأتركك حتى تفكري جيدًا.. إلى اللقاء يا أميرتي.

في جامعة البوليتيكنيك الفرنسية (Ecole polytechnique) التي تحتل المرتبة الثانية من بين أفضل الجامعات الفرنسية، والتي أيضًا تحتل المركز مائة وستة

عشر على مستوى العالم، يقف فارس منتظرًا صديقه الجديد والذى تعرَّف عليه في سكن الطلاب، كان فارس يتعجب من التفاف الطلاب نحو محمد، ذلك الشاب المستقيم أخلاقيًّا ومتميز علميًّا، حتى قرر أن يتعرف عليه ويتنازل على عظمة ذاته، فهو من قبل ذلك لا يذهب لأحد ليتعرف عليه، بل يُذهَب إليه ولكنه حكم نفسه وقرر أن يعرف الطريق ويصل إلى حل ربما يرضيه ويُهدئ من ذلك الصوت الذي بداخله، فداخله يدفعه إلى معرفة الحقيقة، حقيقة ما إذا كان هو على صواب أم تلك الفتاة التي ما زالت تشغل تفكيره، فكان من الصعب عليه أن يصل لنفسه؛ لذا استشار محمد الذي وعده بأنه سيأخذه إلى شاب مثلهم يعمل إمامًا لمسجد من مساجد تلك المدينة رغم صغر سنه إلَّا أنَّ بلاغته جعلت جامعة الأزهر ترسله إلى فرنسا؛ لنشر دين الله!

مرَّ الوقت عليه وهو لا يدري كيف سيقابل ذلك الإمام، وما الذي سوف يحكيه له، تلك أول مرة يتعرَّض لمثل تلك المواقف، ولكنه اتخذ قراره ولن يعود فيه.

لوَّح له محمد من مسافة ليذهب إليه.

- السلام عليكم يا فارس، آسف لتأخُّري عليك فلتعذرني.

- لا عليك يا محمد، فلنذهب الآن ولكنني أشعر بتوتر داخلي.

- لا فلتتماسك.. أنت كما قلت لي تبحث عن الحقيقة؛ لذا فلتتماسك وإمام ذلك المسجد شاب يكبرنا ببضعة أعوام؛ لذا سيتفهم كثيرًا، ولعلي نسيت أن

أخبرك باسمه إنَّه الشيخ طاهر، إنسان خلوق، لقد تعاملت معه كثيرًا من قبل، لديه أسلوب رائع في الحديث، فلا تقلق.

وصل الشابان إلى المسجد ليقابلا الشيخ طاهر، ولكن قبل أن يقابلاه توضآ وصلَّا تحية المسجد، فقد عرف فارس تلك الصلاة من صديقه محمد الذي علَّمه الوضوء لأول مرة منذُ شهرين، فهما أعظمهما من شهرين قد مرَّا على فارس؛ لأنه لم يكن يصلي من قبل أبدًا.

فما إن انتهيا من تلك الصلاة حتى وجدا الشيخ طاهر بانتظارهما، فرحب بهما أشد ترحيب قائلًا:

- أهلًا ومرحبًا بشباب وطني، كم أن رؤيتكما أثلجت صدري، فكل من هنا غريب عني؛ لذا لا أشعر بالأمان إلَّا عند رؤية أُناس من وطني الحبيب مصر، كم أنني أشتاق إليها كثيرًا، فالغربة تجعلنا نشعر حقًّا بحب الوطن وتعلَّمنا كثيرًا، لا أخفي عليكم أنها تغيّر الإنسان داخليًّا، فقلبه دائمًا يشعر بالنقص وعدم الأمان، الغُربة تجعل داخلنا فارغًا ولا تستطيع أن تملأ ذلك الفراغ مهما كنت في أماكن مرفَّهة، فالله المستعان.

معذرةً أطلت عليكما، ولكنني سعيد جدًّا بمقابلتكما، لذا فلتتحدثا بما جئتما من أجله؛ حتى لا أعطلكما أكثر من ذلك.

لاحظ محمد توتر فارس، فبادر الشيخ بالكلام:

- نعم يا شيخ طاهر، صديقي فارس يودُّ أخذ رأيك في شيء خاص، لذا فأنا سأترك لكما مجالًا للتحدُّث سويًّا؛ ليأخذ فارس راحته في شرح ما يودُّ قوله.

ارتاح فارس كثيرًا عندما قال محمد ذلك الكلام، فهو في أمسِّ الحاجة لأن يتحدث منفردًا مع الشيخ طاهر.

وبعد مغادرة محمد مجلسهما بادر الشيخ طاهر قائلًا:

- فلتتحدث يا فارس وأنا أسمعك جيدًا، فلتُفرغ ما في جُعبتك يا بطل.

تمالك فارس أعصابه وحاول أن يتماسك، وبدأ حديثه قائلًا:

- أنا شاب لديَّ من العمر ٢٤عامًا، من أسرة ثرية جدًّا تكاد تكون فاحشة الثراء، تعوَّدت منذُ صغري أنّ كل شيء مُجاب لي دون أدنى تعب مني، فأنا الولد الوحيد لأختين، لم ينصحني أحدًا قبل شهرين بالصلاة سوى محمد صديقي الجديد الذي تعرَّفت عليه منذُ خمسة أشهر، كان أصدقائي القُدامى يصادقونني من أجل أموالي، لا أحد كان يجرؤ على نصحي أو حتى الاعتراض عليَّ، حياتي مثل باقي أقراني من معرفة البنات ومصادقتهن والذهاب للساحل والسفر، ولا أخفي عليك أنني وقعت في كبائر لا داعي لذكرها، ببساطة أنا شاب طائش، جئت إلى باريس لأتعلم وأعود إلى وطني حاملًا لتلك الشهادة الأجنبية ولأدير شركات والدي، كانت حياتي هكذا إلى أن رأيت تلك الفتاة عندما كنت أدرس في جامعة باريس سود (Paris sud university) منذ أول يوم رأيتها فيه وأنا أتعجب كيف لفتاة أن تملك من البراءة كل هذا؟ ترتدي ذلك اللباس

الفضفاض والحجاب الطويل، لا تُحادِث الشباب.. كيف لتلك الجاهلة -في نظري- أن تأتي إلى فرنسا بتلك الثياب؟ فاعذرني يا شيخ طاهر، فأنا كنت من قبل مقتنعًا أنَّ تلك الفتيات المحجبات بتلك الثياب متخلِّفات، ولكنني صُدِمت عندما رأيت تميُّزها، قررت أن أضايقها ولكن بداخلي كنت أودُّ أن أجلس معها وأسألها كيف أنتِ هكذا؟ ولكن كبريائي كان يمنعني، فكنت أضايقها كثيرًا وأستهزأ بها وهي لم تُجِب ولم تعطِني اهتمامًا، فحصلت على رقم هاتفها وأرسلت لها رسالة استهزاء ظنًّا مني أنها لن تتحدث ولن تجيب عليَّ، ولكنها ردَّت وحدَّثتني بلهجة حادة قالت لي: إنني جندي من جنود إبليس، وأنها تتعجب من كوني مسلمًا، قالت الكثير يا شيخي لدرجة أنني لم أستطِع مواجهتها إلى الآن، قررت الهروب إلى جامعة أخرى؛ حتى لا أراها، كنت تائهًا إلى أن وضعت الصدفة في طريقي صديقي محمد، والذي أتى بي إلى هنا، فلتعذرني يا شيخي فأنا تائه، ولكن أقسم لك أنني أحب الله وأريد أن أعلم الحقيقة وأتوجَّه إليه، فدُلني أرجوك!

انتهى فارس من كلامه وعباراته تتساقط لا يدري تتساقط من ماذا! أمِن غُربته تلك السنين عن خالقه؟ أم من هجومه على تلك الفتاة؟ أم وصفه بأنه جندي من جنود إبليس؟!

تنهَّد الشيخ طاهر بعد حديث فارس له وقال له:

- فلتهدأ يا حبيب قلبي، في داخلك صوت يدفعك لمعرفة الحقيقة، صوت يردِّد أنك على خطأ وهذه علامة قوية على صلاح قلبك يا فارس، ربما أنت غافل كل

تلك السنوات؛ لعدم وجود مَن يدفعك للأمام، مَن يُعرِّفك بخطئك، ظهور تلك الفتاة كان خيرًا لك يا فارس، هي مَن جعلت ذلك الضمير يستيقظ ببضع كلمات، إن كنت تريد حقًّا معرفة الله.. معرفة خالقك يا فارس؛ فلتبادر ولتسارع في ذلك.

- وماذا عن تلك الكبائر التي فعلتها؟ ماذا عن عدم صلاتي كل تلك السنوات؟ أيقبلني ربي رغم كل هذا؟!

- نعم يا فارس يقبلك ربك، ومَن غيره يقبل التائبين؟! ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم﴾ بل من رحمة الله علينا يا فارس أنَّ مَن جاءه تائبًا لم يُغفَر له فحسبْ، بل يبدِّل كل تلك السيئات إلى حسنات، الله يا فارس يفرح بتوبة الشاب، الله يحبك يا فارس.

- الله يحبني أنا؟! كيف؟

سارع الشيخ بالرد على فارس قائلًا:

- نعم يحبك؛ لأنه لو ما أحبك لما أيقظ قلبك، من قبل لم تكن تعرف الحق أمَّا الآن وقد عرفته فهذا حُجَّة عليك يا فارس، فلتسارع إلى ربك.

كانت كلمات الشيخ طاهر بمثابة حياة لفارس الذي قرَّر ألَّا يعود إلى طريق الضلال ثانيةً وأن يتغير كليًّا، فشعور الراحة والطمأنينة التي اجتاحته منذ أن بدأ الصلاة إلى الآن شعور أطيب من كل ملذات الدنيا!

# «الفصل السابع»

ظلت حسناء صامتةً لبضع دقائق، لا تدري ما الذي يحدث حولها؟ مَن هذا الشخص؟ وهل حقًّا هو يراقبها منذُ عامين أو أكثر كما يقول؟ كادت رأسها تنفجر من تلك الأفكار؛ لذا قررت أن تبوح بما يدور في رأسها لصديقتها وحبيبتها جويرية، فهي تثق في عقلها الناضج، ورغم أنها تصغرها بعامين إلا أنَّ تفكيرها يكبرها بأعوام وأعوام!

تفاجأت جويرية من حديث حسناء وكيف لأحد أن يكون هكذا؟ وتخيَّلت أنها تقرأ في روايةٍ من تلك الروايات التي تعشقها، فتحدثت إلى حسناء قائلة:

- ماذا؟ كيف يعلم عنكِ كل هذا؟ أحقًّا يراقبكِ منذُ تلك المدة؟!

- لا أعلم يا جويرية، هو مَن قال لي ذلك، أعطاني فرصةً لأفكر وإلَّا سيتقدم لي دون علمي.

ما الذي تقولينه يا حسناء؟ كيف سيعرف عنوانكِ في القاهرة! أعتقد أنَّه يقول ذلك ليقلقكِ لا أكثر.

- لا، بل ما قاله لي يُوحي أنَّه جاد في حديثه.

- إذًا يا حسناء جاءتني فكرة أعتقد أنها ستحسم الجدل.

- ما هي؟ فلتقولي سريعًا!

- هو قال لكِ إنَّه يعلم عنك كل شيء، أليس كذلك؟

- بلى قال.

- إذًا فإن جاء لكِ ثانيةً فلتقولي له بيت والدي مفتوح!

- ما هذا الذي تقولينه يا جويرية؟ أجُننتِ؟!

- لا، لم أُجَن، ولكن تلك هي الطريقة الوحيدة لنعلم إن كان صادقًا أم أنَّه يتلاعب بكِ!

- وماذا إن تقدَّم فعليًّا وأثبت صدقه؟

- وقتها سوف أقوم باختيار أجمل فستان زفاف لأغلى صديقة وأخت لي.

رفعت حسناء حاجبيها متعجبةً من رد جويرية قائلة:

- أتمزحين يا جويرية؟! أهذا وقت مزاحكِ حقًّا؟!

- لا لم أمزح، بل أنا في كامل قواي العقلية، إن كان يعلم عنكِ كل شيء منذُ تلك الفترة وانتظر حتى يعلم الكثير فلِمَ لا تعطينه فرصةً؟ فربما يكون شخصًا ذا خلق، أيضًا قلتِ لي إنَّه فقط يريد موافقتكِ على التقدُّم لكِ، لم يقل لكِ إنَّه يحبكِ ليصاحبكِ ومن ثَمَّ تصبحين تسليةً له!

وقعت تلك الكلمة على حسناء كسهمٍ اخترق قلبها، ماذا.. تسلية؟ أتصبح تسليةً مرة أخرى؟ إنها لم تنجُ من جرحها القديم، هي مَن رخَّصت نفسها في وقت من الأوقات؛ ظنًّا منها أنَّه ذلك الحب الذي يتحدثون عنه، ولكن ما الذي فعله بها سوى حزن وألم وجرح لم تُشفَ منه إلى اليوم؟ ذلك الندم الذي يأكل صدرها.. نعم، لقد تابت ولكن مرارة الذنب تنهش صدرها نهشًا.

فاقت من شرودها على صوت جويرية وهي تسألها: بماذا تفكرين؟!

- حسنًا يا جويرية، سأفعل ما طلبتِ، فإن كان رجلًا سيذهب إلى والدي وإن لم يكن فلن أشغل عقلي به.

عمَّ الصمت أرجاء الغرفة إلى أن قطعته جويرية قائلة:

- أودُّ إخبارِكِ شيئًا يشغل تفكيري منذُ فترة.

ردَّت حسناء عليها في انتباه شديد قائلة:

- ما هذا الشيء الذي يشغل تفكيرِكِ؟ فلتتحدثي، فكُلي آذان صاغية.

تحدَّثت جويرية يشوبها شيء من الخجل قائلة:

- إنَّه فارس!

صُدِمت حسناء من سماع اسم فارس، فما الذي فعله ذلك بصديقتها؟

- ماذا؟! هل حدَّثكِ ثانيةً؟!

سارعت جويرية قائلة:

- لا، لم يحدِّثني، أعتقد أنَّه لم يعد يتذكَّرني، فلقد مرَّ على آخر لقاء بيننا أكثر من عام!

- إذًا، ماذا بكِ فلتتحدثي سريعًا؛ فلقد قلقت.

أكملت جويرية حديثها قائلةً:

- أراه في أحلامي، تكرر حلم منذُ فترة كبيرة أكثر من مرة، ولكن لم أودُّ إخبارِكِ حينها؛ حتى لا تقلقي، رأيته ينظر لي تلك النظرة التي نظرها لي في آخر مرة قبل أن يغادر الجامعة وكأنه يريد شيئًا مني، كان في مكان مظلم وأنا واقفة مكاني لم أتحرك، فقط أنظر إليه من بعيد، أحسست أنَّه يريدني أن أنتشله مما فيه ولكنني لم أفعل، تكرر ذلك الحلم عدة مرات، خفت كثيرًا ودعوت الله له أن يهديه ويصلح حاله ويخرجه ممَّا هو فيه، أعلم أنَّه قاسي الطبع ربما معي فقط، ولكنني لا أعلم لمَ أراه في أحلامي، تنهَّدت بتعب ثم أكملت.. البارحة حدث شيئًا غريبًا.

تساءلت حسناء ووجهها قلقًا على صديقتها:

- ما الذي حدث؟!

أكملت قائلة:

- رأيته ينظر إليَّ، ولكن تلك المرة رأيت في وجهه نورًا ورأيته مبتسمًا وكأنه سعيد ومطمئن يلوّح لي بأن أنتظره وأنه سيأتي لي قريبًا.. لا أخفي عليكِ استيقظت وأنا مطمئنة وسعيدة جدًّا ولا أعلم لِمَ أيضًا!

أجابتها حسناء وأسارير وجهها فرحة:

- إنها رؤيا جميلة، أظن أنَّ دعاءكِ له سيُستجاب وربما سيصلح الله حاله.. أتعلمين يا جويرية؟ أحب مقابلة تلك الأشخاص التي تشبهكِ في نقائكِ رغم ما

فعله بكِ إلا أنكِ تدعين له، محظوظون أولئك الأشخاص الذين يقابلون مثلكم، أتعلمين أنني سعيدة ومحظوظة أيضًا بصداقتكِ أنت وفاطمة صديقتي، أشعر بالطمأنية وأنا أتحدث إليكما، أعلم أنكما تدعوان لي، أظن كثيرًا أنَّ الله ينجيني من مهالك الأمور فقط لأن هناك أناس مثلكما في حياتي يدعوان لي، لا تقلقي يا جويرية، فبعد تلك الرؤية أظن أنَّ أمور فارس بخير، فلتطمئني.

- أودُّ ذلك يا حسناء، أودُّ أن يكون على ما يُرام.

لاحظت حسناء انجذاب جويرية إلى فارس منذُ فترة، ولكن لم تبُح لها بظنونها، ولكن الآن أصبحت متيقنة، تخشى عليها من حُب ذلك الشخص الذي لا يستحق ظافرًا من جويرية، تلك الفتاة الرقيقة طيبة القلب، ولكن ماذا إن كانت الرؤيا ستتحقق وينقلب حال فارس ليصبح شابًّا يليق بها؟! على كلٍّ فالله يفعل ما يريد وهي لا تتمنى سوى الخير فقط لجويرية.

# «الفصل الثامن»

مرَّت ستة أشهر على مقابلة فارس للشيخ طاهر، الذي توطَّدت علاقته به كثيرًا وأصبح صديقًا ومعلمًا له، تفوَّق فارس كثيرًا في دراسته وكذلك في طاعته لربه، أحب الصلاة وتمنى لو أنَّه كان يصلي منذُ زمن، بدأ يحفظ كتاب الله ويتعلم مبادئ الإسلام، أدرك أنَّ الإسلام أعزَّ المرأة بحجابها وليس كما كان يظن من قبل.

تغيَّرت معاملته مع الناس وأصبح سمحًا بشوش الوجه يحبه كل مَن يراه، أصبح أكثر بِرًّا بوالديه اللذين عارضاه كثيرًا أثناء دخوله ذلك الطريق الذي ليس بهيّن! ولكنه وعدهما ألَّا يقصِّر في دراسته وأن يصبحا أكثر فخرًا به، تبدَّلت أحواله كثيرًا عمَّا مضى، ووجه تلك الفتاة لا يُفارق خياله منذُ أن رآها آخر مرة، تمنى لو أنَّه علِم عنها كل شيء قبل أن يغادر، ولكنه لا يعلم عنها سوى اسمها ووجهها اللذين حُفرا في ذاكرته، بل وقلبه للأبد.

نعم، إنَّه القرب من رب العباد الذي يجعل الإنسان تعتريه سعادة وطمأنينة من حيثُ لا يحتسب، تجعله نشيطًا وليس مكتئبًا.. أغبياء نحن نفكر أنَّ في البعد عن خالقنا ستروق لنا الحياة، وأننا سنستمتع بملذَّاتها فنبتعد ونبتعد عنه؛ ظنًّا منَّا أنَّ تلك القواعد التي وضعها لنا خالقنا تقيِّدنا وتؤذينا رغم أنها النجاة لنا، نعم.. هي سبب سعادتنا.

اعترف فارس أخيرًا أنَّ المحجبات لسنَ بمتخلِّفات، بل إنَّ كل واحدةٍ منهن إنسانة تلجم شهواتها وفطرتها في أن تتزيَّن أمام الجميع وتُبرِز أنوثتها تطبيقًا

لشرع الله، ولكنها تؤجِّل ذلك لمن يستحق أن يرى جمالها، إنَّها ليست حلوى مكشوفة ينظر لها الجميع ويلتفُّ حولها بقايا البشر كما الذباب الذي يلتفُّ حول كل حلوى مكشوفة، إنَّها جوهرة لا بُدَّ وأن تُصان.. عندما اقترب انكشفت تلك الغمامة التي كانت تغطي عينيه فذاق لذَّة القرب.

دقَّ باب غرفة فارس ليعلن عن قدوم محمد صديقه، الذي جاء فَرِحًا ليخبر فارس عن أهم إنجازاته، لقد فعلها، نعم حصل على ما أحب، تحقَّقت دعوته التي يدعو بها منذُ زمن، صان قلبه كل تلك الفترة وغضَّ بصره عن نساء العالمين؛ ليفوز بتلك الجوهرة التي أحبها كثيرًا.

- فارس، إنني سعيد جدًّا، أخيرًا وافقت، لقد تقدَّمت لها ثلاث مرات وفي كل مرة كان الرفض يأتي بسبب ظروف تطرأ على عائلتها.

نظر فارس إلى محمد متعجبًا من تلك التي يتحدَّث عنها، ليجد محمد ينفجر ضاحكًا ويقول:

- حسنًا يا صديقي، أنت لم تعرف شيئًا، سأقصُّ عليك تلك المعجزة التي حدثت لي.

إنها حور صديقة أختي أسماء، كنت أحبها منذُ زمن وتقدَّمتُ لخِطبتها قبل مجيئي إلى هنا، ولكن بسبب صغر السن لم يوافق والداها، وبعد أن أصبحت في سن العشرين تقدَّمت ثانيةً ولكن تم الرفض لسبب توتُّر في عائلتها وقتئذٍ، تقدَّمت كثيرًا والآن وافقت، وسأعود إلى مصر قريبًا لنكتب كتابنا، لا أستطيع

أن أنتظر أكثر من ذلك، فقد انتظرت الكثير وغضضتُ بصري وعففت قلبي من أجل أن يمنَّ الله عليَّ بها، وقد منَّ يا فارس، إنَّني سعيد.. سعيد للغاية!

فرحَ فارس لفرح صديقه، وتلك المعجزة جعلت الأمل يعود لفارس في مقابلة جويرية من جديد، لا يعلم أين ومتى، ولكنه يدعو الله ويتيقَّن أنَّه سيستجيب.

# «الفصل التاسع»

- أراكِ تجلسين في نفس المكان منذُ أعوام، هل تحبين الأماكن ولا تودين تغييرها أبدًا؟

تلك الكلمات التي أفاقت على إثرها حسناء.

- أأنت من جديد؟!

- نعم، أنا هو عمر، هل نسيتِ اسمي لتقولين لي أنت؟!

- ما الذي تريدينه مني؟ فلتتركني وشأني.

- لن أتركَكِ وشأنكِ، أودُّ فقط موافقتكِ على تقدُّمي لخطبتكِ وإلَّا سأفعل بدونها!

- افعل ما تريد، وأنا بالتأكيد سأرفضك.

- لِمَ لا تعطينني فرصةً واحدة؛ لأثبت لكِ حُسن نيتي، لِمَ تسيئي الظن بي؟ لمَ أنتِ أيضًا منعزلة؟ دائمًا بمفردكِ، دائمًا أرى دموعكِ وهي تزيّن وجهكِ، لمَ الحزن في عينيكِ؟! حسنًا، لا أريد إجابةً ولكنني سأفعلها، أعلم أيضًا أنكِ ستعودين إلى مصر نهاية ذلك الشهر كما كل عام، وهناك في بيتكِ سأعلم كل ما أودُّ ولن يكون هذا تدخُّلًا، سأغادر الآن يا أميرتي!

تعجَّبت حسناء كثيرًا من طريقته تلك، عفويته في كلامه، تمسُّكه بها رغم معاملتها السيئة له، يبدو أنَّ جويرية صديقتها كانت مُحقةً في أن تعطيه فرصةً أم أنَّه سيخذلها كما فعل غيره؟!

وفي شركة البنهاوي تحديدًا في مكتب عامر كان جالسًا في شرود تام يفكر فيما آل إليه حاله، فلقد كان يراقب فاطمة ويعاملها بلُطف؛ لأنها تذكِّره بمحبوبته مريم، وكيف له أن ينسى مريم وجرحها له بعد فراقها للأبد؟ لا يدري أأحبَّ فاطمة حقًّا أم أنَّه فقط يراها مريم محبوبته؟ تضاربت مشاعره ولا يستطيع أن يحدِّد، هو فقط سعيد عند رؤيتها، كما أنها لا تشبه مريم فقط في ملامح الوجه بل طلاقتها في الحديث، ثقتها بنفسها، براءة وجهها، وروحها الطيبة، إنها مريم في ثوب فاطمة، لا يستطيع البوح لها، لا يريد أن يخسرها أيضًا فهي ليست مريم، ولكن داخله يودُّ أن يهرول إليها ويحتضنها بشدة كطفل تائه عن والدته، ثم وجدها أمامه فجأةً!

# «الفصل العاشر»

مرَّ الشهر سريعًا لينتهي ألم الغُربة، فكل طالب يشدُّ ترحاله إلى بلده؛ ليشبع من حنان أهله وعائلته ويروي ظمأه من تراب الوطن.

كان محمد على أتم الاستعداد ليعود ويرى حبه وحلمه أمامه يتحقق، كما زاد من سروره أنَّ العائلتين قررتا أن تقيما حفل الزفاف سريعًا، أيُّ معجزة تلك؟!

حسناء كانت قلقةً جدًّا لا تدري أهذا الذي يُدعَى عمر سيتقدَّم لخِطبتها أم أنَّه يراوغها فقط، لم ترَه منذُ آخر مرة وعدها فيها إنَّه سيلتقيها في بيت أبيها، أهو محق؟!

جويرية كانت سعيدةً برجوعها إلى وطنها.

طاهر وفارس.. كلاهما سعيد!

فمَن ذا الذي سيشعر بالغُربة إلَّا مَن ذاقها، ألم الغُربة مرَّ مرارًا لا يعلمه أحد، قد يُخيَّل لمن يقطن بين أهله أنَّ هولاء المغتربون ينعمون بتلك الأماكن التي يزورونها أو بتلك الرواتب التي يحصلون عليها، ولكن هل يعلم كم من مناسبة مرَّت عليهم وهم ليسوا مع ذويهم؟! هل يعلم كم مرة ذرفت عيونهم دمًا اشتياقًا لأُسَرهم! هل يعلم كم مرة احتاجوا لحضن أسرتهم وهم لا يستطيعون ذلك أو كم الغم الذي يشعرون به عندما يتأخر أحد من ذويهم في الرد عليهم؟ كم من القلق الذي يلاقونه! هل خُيِّل إليه أنهم يخشون أن يلقوا ربهم وهم بعيدون عن وطنهم؟! فالغُربة ألم لا يعادله ألم!

في مصر.. حيثُ الأمان الذي يُلاقيه كل مغترب، حيثُ الدفء والحنان الذي لن يقدرهما إلَّا مَن ذاق مرار فراقهما لسنواتٍ.

استيقظ محمد فرحًا، وكيف لا يفرح واليوم هو أول لقاء بمحبوبته التي انتظر لقاؤها منذُ أعوام، وكيف لا يفرح وقد كانت دعوته في سجوده؟ نعم، دعوته التي لم يتخلَّ عنها حتى أرضى الله قلبه بها.. اليوم ستتفق العائلتان على تحديد موعد الزفاف.

تلك الحور التي -أخيرًا- قُدِّر له أن يحصل عليها بعد عناء دام لسنوات.

وفي منزل حسناء سيأتي زائر يودُّ أن يفي بوعده لها، إنَّه عمر!

فقد تقدَّم لخِطبتها كما وعدها، واليوم سيتحدَّث معها ليس تطفُّلًا كما كان يفعل في السابق، بل إنَّ اليوم سينظر لعينيها نظرةً طويلة، فكم تمنى ذلك، وها هو الآن قد أتى!

ارتدت حسناء فستانًا بسيطًا للغاية، كبساطتها، لونه كلون السماء، ويحيط بخِصره حزام من اللؤلؤ وعليه حجابها ذو اللون الوردي.. أبرزت جمال عيونها ببعضٍ من حبَّات الكحل الذي تحبه كثيرًا.

جاء الضيف المنتظَر لينادي عليها والدها أن تتقدَّم وتجلس معه، توتَّرت كثيرًا ولكن قام والدها بتهدئتها ومَن غيره سيقوم بهذا الدور؟! فقد توفِّيت والدتها منذُ أعوام حتى صديقتها جويرية لم تستطِع المجيء؛ لذا فهي اليوم وحيدة كما كل يوم.

تشعر بوحدتها دائمًا في تلك المناسبات أو تلك المواقف التي تنظر حولها فلا تجد سوى نفسها ووالدها السيد كمال يربت على كتفها دائمًا، فنعم الأب هو..

أفاقت من حزنها الدافن في قلبها؛ لتبتسم لوالدها وتتقدَّم نحو غرفة الضيوف؛ لتبدأ الرؤية الشرعية بحضرة والدها ووالد عمر، وكما المعتاد استأذن الوالدان؛ ليفسحا مجالًا للعروسين في الكلام بأريحية.

بدأ عمر الحديث؛ لأنه يشعر بتوترها كثيرًا قائلًا:

- ألم أخبركِ من قبل أنني أعلم عنكِ الكثير؟ أظن أنكِ تصدقينني الآن.

وعلى إثر طريقته العفوية ابتسمت حسناء لتُذيب قلبه، فما الذي تفعله تلك البسمة في قلبه لا يدري، ولكن يشعر في حضرتها وكأنه يحلِّق في السماء، فتلك الحسناء قد سلبته لُبَّه!

- أنا أعلم عنكِ كل شيء أو كل شيء يهمني معرفته عنكِ، فهل تودين أن تسألي أي سؤال؟ فهذه الفرصة لن تتكرر، فلتقتنصيها.

ردَّت عليه حسناء في ذهول:

- ما تلك الثقة يا بشمهندس؟!

ردَّ عليها وعيونه يملؤهما الفخر:

- وكيف لي ألَّا أثق بنفسي وأنا أمامكِ الآن؟ فأنا أسعد إنسان فقط؛ لأنني أحدثكِ في بيتكِ يا أميرتي.

حاولت حسناء أن تغيّر مجرى الحديث، فقد احمرَّت وجنتاها خجلًا من كلماته فسألته قائلة:

- كيف عرفتني؟ وهل حقًّا كنت تراقبني كل تلك الفترة؟ ولِمَ أنا وليس غيري؟!

ابتسم من تلك اللماضة التي تمتاز بها حبيبته، فأجابها قائلًا:

- مهلًا مهلًا يا حسناء، نعم يا أميرتي، كنت أراقبكِ كل تلك الفترة، علمتُ بمواعيد ذهابكِ لتلك الحديقة، كنت آتي هناك فقط لأجلكِ سأكتفي بقول هذا فقط، أمَّا عن سؤالكِ: لمَ أنتِ فهذا أيضًا سأخبركِ به لاحقًا ليس الآن، ولكن عندما تصبحين زوجتي.

رفعت حاجبيها قائلة:

- وماذا إن لم أقبل بكِ؟!

- لا، ستقبلين بي زوجًا، أوقن بهذا.

تعجَّبت من ثقته الزائدة تلك وسألته جادة:

- ولم توقن؟!

رفع كتفيه بفخر قائلًا

- لمعة عينيكِ الآن أخبرتني.

زاد كلامه من خجلها فسألته:

- حدِّثني عن نفسك.

- أوامركِ سيدتي، أنا عمر، لديَّ من العمر سبعة وعشرون عامًا، أعمل مهندسًا لدى شركة البنهاوي في ذلك الفرع المقيم في باريس، أصلي فروضي كاملةً وأجاهد في حفظ كتاب الله، والدتي متوفاة، ولكن لديَّ خالة أعتبرها في مقام والدتي وابنتها كأختي، ستحبينها كثيرًا، أودُّ أن تكوني زوجتي، فهل تقبلين بي زوجًا لكِ؟!

ابتلعت حسناء ريقها بصعوبة، فمَن ذلك الشخص الذي كلما حدَّثها أخجلها بلُطف كلماته، نادت على والدها لتنهي تلك الرؤية، فقد ذابت عندما تحدَّث القليل ماذا لو تحدَّث الكثير!

قررت أن تصلي صلاة استخارة وتعطي نفسها حقًّا في الحياة مرة ثانية، فهي على الأغلب تستحق أن تحيا حياةً سعيدةً مليئةً بالحب والتفاهم كما أخبرتها صديقتها جويرية.

ذهب عمر إلى بيت خالته ليخبرها، فقد قرر أن يخبرها الآن بحسناء، لم يود إخبارها من قبل؛ حتى لا تقلق بشأنه، ولكنه الآن يشعر أنَّ تلك الحسناء ستقبله أخيرًا.

دقَّ جرس باب خالته لتفتح له فاطمة فتُصاب بتوتر شديد، فهي أول مرة تراه منذُ سنين، وعندما عاد منذُ شهر من باريس وزار والدتها لم تكن هي بالمنزل..

قطع شرودها صوته قائلًا:

- كيف حالكِ يا فاطمة، لعلكِ بخير.

ردَّت قائلة:

- الحمد لله.

ليجيء صوت والدتها تسأل:

- مَن الذي أتى يا فاطمة؟

وقبل أن ترد عليها وجدته يرد عليها هو:

- أنا يا خالتي، فهل تسمحين لي بالدخول؟

أجابت خالته في ترحاب شديد:

- أهلًا يا عمر، فلتأتِ يا حبيب خالتك، أراك سعيدًا، ما الذي حدث لك؟ فلتفرغ ما في جُعبتك!

- نعم، أنا محق عندما أعتبركِ أمي بعد وفاتها، فأنتِ تشعرين بي مثلما كانت تشعر هي.

- رحمة الله عليها يا ولدي.

- أودُّ إخباركِ بأنني سأخطب قريبًا.. إنها فتاة تعرَّفت عليها في باريس.. هي طيبة مثلكِ يا خالتي، تقدَّمت لها بالفعل، لم أخبركِ من قبل حتى لا تقلقي عليَّ، ولكن عندما أيقنت أنها ستوافق بي جئتكِ فورًا.

سمعت فاطمة تلك الكلمات وكادت تُسقِط العصير من يديها، ولكنها تمالكت أعصابها.. لم تستطِع أن تُخفي ألمها عن والدتها، فقد علِمت بما أصابها ولكن لا تستطيع مساعدتها، فابنتها عزيزة وجوهرة يتمنى أي شخص الزواج منها، فهل ترخِّصها هي بعرضها عليه وهو الذي لم يفكر بها يومًا؟!

أفاقت من شرودها على كلمات عمر:

- ماذا بكِ يا خالة؟ هل أنتِ بخير؟

- نعم يا ولدي بخير، مبارك لك يا عمر، أتمنى أن يتم الله فرحتك تلك على خير.

غادر عمر ولكنه لا يعلم كم أنَّ كلماته تلك جعلت قلبها ينزف دمًا.. لا يعلم أنَّ كلماته تلك قد أودَت بأحلام فتاة لطالما تمنَّته.

دخلت والدة فاطمة عليها غرفتها فوجدتها منزويةً في ركن من الغرفة ولا تنطق بكلمة، فما كان عليها إلَّا أن هدَّئتها ببضع كلمات لا تشفي ذلك القلب المنفطر.

- هل تسمحين لي يا أمي أن أخرج الآن؟ أريد أن أكون بمفردي.

وافقت والدتها على طلبها، وكيف لا توافق؟!

خرجت فاطمة وهي لا تدري إلى أين تذهب، فقط تسير إلى حيثُ لا تدري، ودموعها تنمُّ عمَّا في قلبها من ألم.. حلمها الذي راودها منذُ نعومة أظافرها قد فارقها الآن.. لِمَ لمْ يحبها مثلما أحبته؟ نعم، هي لم تعترف له من قبل ولكن ألم

يشعر بها من قبل؟! أفكار كثيرة تدور في عقلها وقلبها ينزف.. لم تفِق إلَّا على صوت يصرخ قائلًا:

- انتبهي يا آنسة.

# «الفصل الحادي عشر»

أحيانًا تتصادم الأفكار مع بعضها البعض، فلا تدرك أي خيار هو الصواب، خوف الآباء على أبنائهم قد يصل إلى حد الجنون؛ لذا يأتي وقت ويجبرونهم على فعل الكثير من الأشياء التي رُبما تكون نابعةً عن خوفهم غير المبرر.

في إحدى البيوت الفارهة في أفخم مدن القاهرة يُدار نقاشٌ حاد بين فارس وعائلته فَقد تغيَّر شكله وطباعه، بل وحديثه أقلقهم كثيرًا؛ لذا حدَّثه والده قائلًا:

- ماذا بك يا فارس؟ لماذا تغيَّرت ملامحك هكذا؟ أأنت بخير؟!

- نعم يا أبي، إنَّني تغيَّرت كثيرًا عمَّا مضى، عرفت الطريق إلى الله، أدركت قيمة بر الوالدين وصلة الأرحام، أصبحت أكثر تسامحًا، لم أعد مُتكبرًا كما السابق؛ فمعرفة ديني جعلتني أدرك أنَّ لا فرق بين عربيٍ وأعجمي إلَّا بالتقوى، أحببت نفسي، لقد كنت تائهًا يا أبي، والآن عثرت على نفسي التي فقدتها منذُ أول لقاء لي بالدنيا.

صرخت فيه والدته السيدة ناريمان قائلة:

- ما الذي تقوله؟! فارس أجُننت؟ ما تلك الطريقة التي تتحدث بها؟ مَن هذا الذي فعل بك ذلك؟ يبدو أنَّ عقلك قد غُسِل! ثم هدأ صوتها وقالت بنبرة تشوبها السخرية:

- وما تلك الذقن التي تشوِّه وجهك لِمَ لم تحلقه؟! إن لم تتراجع عن كل هذا الهُراء فسيكون لي قرار حازم، أفهمت يا فارس؟

- ماذا يا أمي؟ لقد تحسَّن قلبي كثيرًا، وجدت نفسي يا أمي، أنتم تعلمون مَن هو فارس؟ ذلك الشاب الطائش الذي فعل الكثير، بل فعل كل شيء يُغضِب الله، ولكنَّ قلبه لم يطمئن، لم يسعد إلَّا بطريق الله، لم أشعر بلذة تُضاهي اللذة التي أشعر بها الآن وأنا تائب، أرجوكم فلتفهموني!

أتاه صوت آخر يؤيّد ما قالته والدته ووالده كان من أخته شذى:

- فارس، نريدك كما كنت، أنا خِفْت منك كثيرًا وأنت بذلك الشكل، هل ستقتلنا؟! ستقول لنا إنَّ كل شيء ممنوع، لا يا فارس، أريدك يا أخي كما كنت وإلا فلتعتبرني ميتةً من الآن.

اغرورقت عيون فارس بالدموع: ما هذا؟

أسرته وعائلته كلها الآن ضده، ماذا يفعل ولمن سيذهب؟ ضاق صدره فما كان منه إلا أن تذكَّر قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُون * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِين﴾ فذهب وتوضَّأ ليفرغ ما في صدره من ألم.

وبعد أن انتهى فكر أن يتحدث مع صديقه محمد؛ لعلَّه يُثبِّته كما يفعل دائمًا، ولكنه تذكَّر أنَّ موعد زفافه اقترب فقرر ألَّا يُحدِّثه إلَّا بعد أن يُنهي زفافه ويستقر.

كانت شذى تغتاظ من أخيها فارس، فقد كان يحظى بمكانة عند الجميع؛ ولأنه سبب جرحها القديم وتألمها، أمَّا الآن فأتى دورها لتأخذ مكانته عند والديها،

فلطالما حرَّضت أخته ميسرة عليه وألقت على مسامعها تلك الكلمات السَّامة عن أخيهما وكيف يميّزه والديهما، ولكن ميسرة لم تُلقي لها بالًا؛ لذا فاليوم أتت لها الفرصة على طبق من فضة، وقررت أن تحظى بتلك المكانة لها وحدها.

# «الفصل الثاني عشر»

في إحدى قاعات الأفراح المشهورة في القاهرة التي تفصل بين الرجال والنساء يُقام حفل زفاف محمد على زوجته حور، كان الحفل ممتعًا لم يكن صاخبًا، بل كان هادئًا تملؤه البهجة بين العائلتين في انتظار المأذون الذي سيعقد قران محمد وحور.

كان فارس فرحًا بصديقه الذي يرى سعادته في عينيه، ويتمنى أن يجمعه القدَر بتلك الفتاة التي لم ينسَها قط منذُ أن رآها، نعم.. تمنى جويرية تلك الفتاة التي كانت سببًا في رجوعه إلى الله، ولكن في رأسه ألف سؤال: هل ستوافق عليه؟! هل ستعفو عنه وتسامحه عمَّا بدر منه، قطع شروده صوت رنين هاتفه الذي أعلن له عن هُوية المتصل، إنَّه طاهر.

ردَّ فارس قائلًا:

- السلام عليك يا شيخ طاهر، أين أنت الآن؟ نحن في انتظارك.

ردَّ طاهر قائلًا:

- آسف يا فارس، لن أستطيع المجيء فقد صَدمت سيارتي فتاة وأنا الآن في المشفى؛ للاطمئنان عليها، أودُّ أن تخبر محمد بأني آسف على عدم الحضور.

- أين أنت يا شيخ طاهر وأنا سآتي إليك، وكيف حدث ذلك؟

- أنا في مستشفى الجنزوري التخصصي في مصر الجديدة، ولكن دَعك مني الآن، أنا سأتولى الأمر فلا تترك محمد في ليلة زفافه هكذا.

- كيف يا شيخ طاهر سآتي إليك الآن.

ذهب فارس إلى محمد واستأذن منه:

تفهَّم محمد الأمر، بل إنَّه قرر أن يذهب معه، ولكن فارس منعه قائلًا:

- لا عليك يا محمد، سأتولى الأمر، فلتكمل زفافك وبعدما أنتهي سأخبرك.

وأثناء خروج فارس من القاعة اصطدم بفتاة فغضَّ بصره عنها بسرعة، ولكن كيف؟ أيحدث هذا؟ إنَّها جويرية، أيُعقَل أن تكون هي أخت العروس فعلًا؟! أم أنها تضع ذلك الدبوس الذي يحمل اسم أخت العروس؛ ليس لأنها اختها؟!

لم يستطِع أن يترك الشيخ طاهر بمفرده، يعلم أنَّ بينه وبين قلبه مسافة قصيرة، ولكن كيف سيترك مَن ساعده وربت على قلبه في وقت كان قلبه أحوج ما يكون إلى ذلك، توجَّه إلى سيارته بسرعة وانطلق حيثُ المستشفى.

لاحظت حسناء تغيُّر ملامح جويرية، فسألتها:

- ماذا بكِ؟ هل أنتِ بخير؟!

ردَّت قائلة:

- أشعر وكأنني رأيت فارس، أنا اصطدمت به، ولكن يا تُرى أيُخيَّل لي هذا؟ شكله أصبح غريبًا عمَّا قبل، فرأيت لحيةً تزيّن وجهه، اصطدم بي فغضَّ بصره سريعًا.

- لربما ليس هو يا جويرية، فلتهدئي!

- نعم، لربما أحد غيره تشابه معه!

- إذًا فلتسعدي الآن، إنَّه زفاف أختكِ يا جويرية، هيا لنشارك الفتيات رقصهن.

وصل فارس إلى الشيخ طاهر أخيرًا، وتحدَّث معه عن ذلك الحادث وسأله:

- كيف حدث ذلك؟

- لا أعلم يا فارس، إنها ظهرت أمامي فجأةً وكأنها لم تكن في عالمنا، جئت بها إلى هنا فهي أقرب مشفى لنا، واتصلت على والدتها من جوالها وهي منهارة الآن، أتمنى أن تصبح بخير!

- لا تقلق يا شيخ طاهر، ستكون بخير بإذن الله.

خرج الطبيب من عندها ليقول للشيخ طاهر ووالدتها:

- لقد نجت من الموت ولكن..

وعند ذكر الأطباء تلك الكلمة تتوقَّف دماء أهالي المرضى، فتلك الكلمة قادرة على الفتك بهم!

فأكمل الطبيب:

- ولكن قد تفقد الذاكرة مؤقتًا لأيام أو ربما لشهور أو أكثر! وهذا الفقد ليس فقدًا كليًّا، ولكنها تفقد بعض الأحداث التي حدثت لها في فترات متباعدة، ولكن على كلٍّ هي بخير.

تنفَّس الجميع الصعداء، وذهب طاهر لوالدتها ليهدِّئها:

- أنا لم أقصد يا أمي، لقد ظهرت أمامي فجأة، والله على ما أقول شهيد، أنا متكفل بكل مصاريفها حتى تستعيد وعيها وتعود كما كانت، فلتسامحيني!

- لا عليك يا ولدي، فهذا هو القدر ونحن نؤمن بالقدر خيره وشره، قدرها هذا لقد عانت كثيرًا لربما فقد الذاكرة هو خير لها، فالله لا يفعل إلَّا الخير يا ولدي، فلندعُ الله أن يصبِّرني وتُشفَى حبيبتي سريعًا.

أتى عمر إلى المشفى عند علمه بما حدث؛ ليشارك خالته حزنها على فاطمتها، وأتى معه كل مَن علم بذلك الحادث لفاطمة، حزنوا عليها حزنًا شديدًا صغارًا كانوا أم كبارًا، فلقد كانت فتاةً جميلةً وروحها نقية، كانت لا تبغض ولا تحسد أحدًا، بل كانت ملاذًا للجميع!

ماذا عن الصُّدَف التي تحدث لتجمعك بشبيهك، الذي لو قال لك أحدهم منذُ أعوام مضت أنك ستُغرَم بفلان لكذَّبت هذا، ولكن الأفكار كما القلوب تتغير..

ظلَّ فارس يفكر بتلك الـ "جويرية" التي شغلت باله وملأت فؤاده بعبقها، لولاها ما كان حاله هكذا، ورغم صراعاته مع أفراد أسرته إلا إنَّه يودُّ وبشدة خِطبة تلك الحورية التي أَسَرته بحبها، ولكن ماذا إن ردَّته فيرجع كخُفي حُنين! ماذا إن كان هو لا يأتي على بالها من الأساس؟ وماذا إن كان أحدهم يشغل بالها؟ احتقن وجهه بالدماء عندما أتته تلك التخيلات، وذكَّر نفسه بحُسن الظن بالله وتمنى أن تكون هي زوجته.

قرر أن يستأذن والداه في خِطبتها رغم تلك الصراعات التي تدور بينه وبينهما، ويعلم أنها ستقوم القيامة عندما يعلمان بطلب زواجه من تلك الفتاة، ولكنه قرر أن يفاتحهما بعدما يعلم عنها كل شيء، وذلك بسؤال محمد صديقه فقد كانت في زفافه، فلا بُدَّ وأنها مدعوة من قِبَل أهل زوجته، ولربما تكون هي أخت زوجته حقًّا.

مرَّ شهر على زواج محمد من حور، كانا أسعد زوجين؛ فلقد عفَّا أنفسهما حتى تم لقاؤهما تحت سقف الحلال، فما أجمله من شعور!

عندما تُلجِم نفسك بالابتعاد عن أحب إنسان لقلبك؛ فقط لأنَّك تريده أمام الله وأمام الناس، فهذا ما يُسمَّى بالحب النبيل!

اتفق كلٌّ من فارس ومحمد على مقابلة طاهر والذهاب معه لبيت تلك الفتاة التي صدمها بسيارته، كانا يريدان أن يكونا دعمًا له وسندًا، وخلال انتظارهما لطاهر فاتح فارس محمد بذلك الموضوع الذي يشغل تفكيره وسأله قائلًا:

- أتتذكَّر يا محمد تلك الفتاة التي كانت سببًا في تغييري؟!

- نعم يا فارس، هل علِمت عنها شيئًا؟

ردَّ فارس:

- نعم، لقد رأيتها في حفل زفافك!

- حفل زفافي أنا!

- نعم، إنها جويرية المغربي، أودُّ أن تسأل عنها زوجتك، فبالتأكيد هي تعرفها، أقصد أعتقد ذلك!

ردَّ محمد وأسارير وجهه فرحةً:

- يبدو أننا سنكون معًا لآخر العمر يا رفيق.

- ماذا تقصد؟!

- أقصد أنَّ جويرية هي أخت حور الصغرى، والآن عليك أن تأخذ رضايَ؛ حتى أحدِّد لك موعد مع حمايَ العزيز.

- أتتحدث حقًّا يا محمد؟ يا إلهي ما أعظمك! نعم نعم، ولكن انتظر مني أن أفاتح أسرتي بشأن تلك الخِطبة، أتمنى أن يوافقوا فأنا غريق في بحر حُبها!

ردَّ محمد يُباغته قائلًا: غريق!

- نعم غريق.

تعالت ضحكاتهما حتى وصل طاهر ليسألهما عن سبب ضحكاتهما تلك!

ردَّ محمد وهو رافع رأسه في شموخ:

- إنَّه فارس، يودُّ خِطبة أخت زوجتي ويريدني أن أتوسَّط له.

ردَّ طاهر متعجبًا: أتقصد أنَّ تلك الفتاة التي تحدَّث عنها من قبل هي نفسها أخت زوجتك؟!

رد محمد: نعم.

- يا إلهي، سبحان الله! كيف هذا؟ ما أعظمها من صدفة!

ثم أردف رأسه في خجل قائلًا: أود إخباركما بشيء يا شباب.

قال فارس غامزًا وكأنه فهم ما يرنو له صديقه:

- هات ما عندك.

- لقد وقعت في شِباك الحب، لا أدري كيف ولا متى، ولكن منذُ أن رأيتها وبالي مشغول بها دائمًا، أريد أن أتقدَّم لخِطبتها، ولكنني لا أعلم أي شيء عنها!

ردَّ محمد مستفهمًا: كيف؟ متى قابلتها أو أين لنبدأ البحث؟!

ردَّ فارس:

- يبدو أنَّه وقع في شباك مَن صدمها بسيارته!

صُدم طاهر من كلام فارس وقال: كيف علمت هذا؟ أنا لم أتحدث إليك بشأن ذلك من قبل!

- ولكن ملامحك كانت تفضحك عندما كنا في المشفى.. أتذكُر ذلك الشاب الذي أتى، لقد تغيَّر وجهك حينها ولكن سُرعان ما عاد إلى ما كان عندما علِمت أنَّه في مقام أخيها.

قال طاهر وكأنه طفل صغير:

- نعم يا فارس أحسست بأنني أغار عليها، خفت أن يكون زوجها أو خطيبها، لا أدري لمَ أحسست هكذا، ولكنني اليوم سأفاتح والدتها وليكن ما يكن!

***

وصل طاهر وصديقاه إلى منزل فاطمة؛ ليطمئن عليها، فقد كان يشعر بذنب كبير تجاه تلك الفتاة، لم يقصد أن يؤذيها، أمِثْله يقدر على إيذاء أحد؟!

استقبلتهم والدة فاطمة بترحاب شديد، فبدأ طاهر الحديث قائلًا:

- كيف حال الآنسة فاطمة يا خالة؟ لعلها بخير وفي تحسُّن دائم.

ردَّت أم فاطمة:

- الحمد لله يا ولدي، بدأت في تذكُّر أشياء كثيرة، فهو فُقدان ذاكرة مؤقت كما حدَّثنا الطبيب.

ردَّ الشباب جميعًا بصوت واحد: الحمد لله.

- لقد تعبت معنا كثيرًا يا ولدي، وقفت بجانبنا كثيرًا، أعلم أنك تشعر بالذنب ولكن هذا قدر الله وليس لك فيه شيء، أنت فقط سبب؛ لذا لا تُرهِق نفسك في اللوم والعتب، فلترحم نفسك قليلًا يا ولدي.

- وكأنكِ تقرئين ما بداخلي يا خالة، ولكنني أودُّ أن أفاتحكِ في شيء وأتمنى أن تُحسني ظنكِ بي.

- تفضَّل يا ولدي، قل ما عندك!

- أودُّ أن أتزوج فاطمة

- ماذا؟!

- أعلم أنكِ تتعجبين الآن أو لربما تظنين أنني أفعل ذلك؛ لأريح ضميري، ولكن لا، أقسم لكِ أنَّ قلبي التفت للآنسة فاطمة من أول يوم، بالي مشغول دائمًا بها وكأنني فُتِنت بها، أتمنى أن تفهميني جيدًا.

- حسنًا يا ولدي، سأفاتح فاطمة وابن خالتها وأبلغك بما سيكون إن شاء الله.

انتهت المقابلة بين طاهر وصديقيه والسيدة أم فاطمة.

وكلٌّ منهما رأسه تُقام فيه العديد من التساؤلات والمخاوف، فأم فاطمة تخشى أن يكون طاهر يفعل ذلك؛ بسبب عاطفته ولومه لنفسه، وهي أيضًا تعلم أن ابنتها الآن لا تتذكَّر أنها كانت تحب عمر ابن خالتها، ماذا لو تمَّت الخِطبة وتذكَّرت فيما بعد!

وطاهر لا يعلم لمَ دقات قلبه تتسارع، يخشى أن يكون قد تعجَّل الأمر؛ لأنه ولأول مرة يُقدِم على شيء بناءً على رغبة قلبه!

# «الفصل الثالث عشر»

علِمت حسناء بحادث صديقتها التي ربتت على كتفها في أشد فترات حياتها ظُلمة، هي مَن ساندتها وجعلتها تتقبَّل روحها ونفسها من جديد، هي مَن آمنت بصفاء روحها عندما كانت تكره نفسها بعد تلك العلاقة السامة، فكيف تنسى معروفها؟!

اتصلت حسناء على جويرية وطلبت منها أن تأتي معها؛ لزيارة صديقتها فاطمة، تلك الفتاة التي انتشلتها من ظلمتها! فما كان من جويرية إلا تلبية طلب أعز صديقاتها.

فالأصدقاء هم دواء الروح، طمأنينة للنفس، إن ضحكت لك الحياة فستهديك صديقًا يكن لك الحياة!

وكما توقَّع فارس عندما فاتح والديه بشأن تلك الـ "جويرية" التي أسَرته، رفضا رَفْضًا شديدًا، وقالت له والدته:

- لقد فهمت الآن ما هو سبب تغييرك.. إنها تلك الفتاة، أليس كذلك؟!

أومأ فارس برأسه موافقًا وهنا انفجرت فيه قائلة:

- أتريد أن تخسر عائلتك من أجل فتاة جاهلة؟!

بادرها فارس قائلًا:

- ليست جاهلةً يا أمي، إنها زميلتي في الدراسة بباريس، إنها فتاة مجتهدة ومرحة، كنت أظن مثلكم أنَّ تلك الفتيات اللواتي يرتدين تلك الجلابيب هن فتيات

متخلفات لا يفقهن شيئًا، ولكنني كنت مخطئًا، أقسم لكِ يا أمي أني أحبها وسوف تحبونها، فلتعطِني فرصةً واحدةً فقط!

ردَّ والده مُنهيًا ذلك الجدال:

- حسنًا، فرصة واحدة فقط يا فارس!

فرح فارس وشكر والده، ثم سرعان ما اتصل على محمد ليأخذ موعد رؤية شرعية قبل انتهاء إجازة العام.

وعندما كان طاهر مندمجًا في عمله جاءه اتصال من والدة فاطمة شرحت له وجهة نظرها في أن تنتظر فاطمة فترةً من الوقت؛ لتستعيد وعيها بشكل كامل، لأنها تخشى عليها فهي ابنتها الوحيدة، تخشى أن تنتكس فإن كان متمسكًا بها فليُعطها مهلة؛ حتى تستطيع أن تستعيد ابنتها عافيتها.

ذهبت كلٌّ من حسناء وجويرية لزيارة فاطمة في منزلها، وبرغم فُقدان فاطمة لذاكرتها إلا أنها تتذكَّر حسناء جيدًا، فكيف تنسى رفيقة روحها! وكأنَّ فاطمة تتذكَّر كل شيء إلا حبها لعمر ابن خالتها، وكأنَّ القدر يريد أن يمحي ذلك الحب الذي نبت في صدرها تجاهه، فكيف يستحقه وهو مَن أحب غيرها!

أحيانًا لا بُدَّ لنا وأن ننسى أمورًا في حياتنا تسبِّب متاعب لنا، وأن نفقد ذاكرتنا مؤقتًا وإن لم يكن عن طريق حادث فليكن عمدًا منا، لا بُدَّ وأن نرى حق أنفسنا علينا وأن نتخطى كل إنسان لا يرانا شيئًا مميزًا في حياته حتى وإن كانت روحنا متعلقةً به، فاختيار أنفسنا أحيانًا يكُن قمة الإنصاف وليس الأنانية!

علِمت جويرية بتقدم أحدهم إلى خِطبتها، لم تتمالك دموعها فقد مال قلبها لذلك الفارس، ولكن كيف الوصال إليه؟ لامت نفسها كثيرًا عن ذلك التعلق الذي لم تضع له حدودًا منذُ البداية، ولكن ما جدوى الندم! وقلبها ينبض باسمه الآن!

ما كان منها إلا أن تلجأ لرفيقة روحها حسناء التي ذكَّرتها بأنَّ الله لا يفعل إلَّا الخير، وحتى إن كان الخير في غير ذلك الفارس الذي أحبته فلا بُدَّ أن تتوازن وأن تُحكِّم عقلها، نصحتها أن تصلي صلاة استخارة وإن كان خيرًا لها سيقدِّمه الله لها.

انصاعت جويرية لكلام صديقتها، ولكن داخلها يأبى، فكيف تنسى تلك النظرة التي نظرها لها؟! كيف تنسى ذلك الحُلم التي رأته يبتسم لها فيه؟!

وكيف تنسى أنَّها رأت شبيهًا له في ملامحه ولكنه كان أكثر وقارًا؟ كيف تنسى زيادة نبضات قلبها عند ذكر اسمه، ولكن لا بُدَّ وأن تحكِّم عقلها كما نصحتها حسناء، فهي مَن فعلت بقلبها ذلك عندما لم تنهِ تلك المشاعر في وقتها، والآن جاء الوقت التي كانت تتمنى ألَّا يأتي، فقد تقدَّم لخِطبتها أحدهم فماذا ستفعل؟!

صلَّت جويرية صلاة الاستخارة وقررت أن تقابل ذلك العريس في الرؤية الشرعية، وليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

في بيت السيدة أم فاطمة جاء زائرًا، وكانت زيارته مفاجئة، كان السيد عامر مدير فاطمة في الشركة، جاء وقد قرر أن يتقدَّم لخِطبتها فهي مَن حركت مشاعره بعدما تركته حبيبته مريم وغادرت الحياة بأكملها، تفاجأت أم فاطمة من طلبه ولكن ليس لديها سوى أن تؤجل الكلام في هذا الموضوع؛ حتى تتحسَّن ابنتها وفلذة كبدها، فالآن فاطمة تتذكَّر شيئًا فشيئًا حتى إنها تتذكَّر حبها لابن خالتها، وقد علِمت مؤخرًا بعروسه، كانت حسناء صديقتها.. نعم، لقد أحبَّ حبيبها صديقتها، فماذا ستفعل سوى أن ترحل بصمت مُطبَق؟ صمت ودموع متحجرة في عينيها، قلبها يتشقَّق وجعًا فحبيبها وصديقتها سيصبحان زوجين عمَّا قريب، لا بُدَّ وأن تنتزع ذلك الحب وتقتلعه من جذوره!

هذا حال الدنيا أحيانًا أو على الأغلب ستصفعك صفعةً قويةً لتستفيق، ولِتعلم أن تتحكَّم في مشاعرك، ألَّا تتعلق بأحد دون إخباره فإن لم تملك تلك الجرأة فلا بُدَّ وأن تملك جرأة عدم التفكير بأحد! تلك هي الحياة!

جاء اليوم الذي ينتظره فارس، فاليوم وبعد عامين سيقابل مَن غيَّرته لأفضل حال دون أن تشعر، جاء اليوم الذي سيقابل فيه تلك الفتاة التي قرَّبته من ربه، نعم.. لقد جاءت مَن كانت سببًا في صلاح قلبه وعقله، بل وحياته بأكملها!

ولكن تجمَّدت أطرافه عندما تذكَّر أنها وصفته بأنه جندي من جنود إبليس، هل ستسامحه؟! أم أنها ستقابله بجفاء؟!

بدأ قلبه يرتجف وأنفاسه تتلاحق، ولكنه بدأ يذكر الله حتى يتغلَّب على تلك الوساوس التي تلاحقه!

في منزل جويرية

كانت تستعد لمقابلة ذلك الضيف، ولكن شعور غريب يجتاح قلبها، فقلبها مطمئن وتجد راحةً نفسيةً تجاه تلك المقابلة عكس ما كانت عليه الليلة السابقة!

ارتدت فستانًا أسود اللون ذا أكمام واسعة، يلتفُّ حزام حول خصرها، كان فستانًا جميلًا رغم بساطته، كما ارتدت خمارًا بلون السماء زادها جمالًا على جمالها!

جاء الضيف واستقبله والد جويرية ومحمد صديقه، وبدأ الجميع يتحدث حتى تأتي العروس.

قام والد جويرية ونادى عليها لتأتي، وخرج الجميع حتى تتم الرؤية الشرعية وليفسحوا مجالًا للعروسين أن يتحدثا كيفما يريدان.

ساد الصمت لدقائق معدودة قطعه فارس قائلًا:

- كيف حالك يا آنسة جويرية؟

لم تصدِّق جويرية أذنها ورفعت عينها:

- ماذا؟ إنَّه فارس.. يا إلهى! كيف هذا؟!

وأثناء تعجُّب جويرية تحدَّث فارس بما في نفسه لها:

- أعلم أنكِ تتعجبين الآن، أعلم أنني كنت وقحًا معكِ كثيرًا، أعلم أيضًا أنكِ تودين أن تكوني زوجةً لشخص أفضل مني بكثير، ولكنني تغيَّرت كثيرًا، عرفت طريق الله بسببكِ أنتِ يا جويرية، أنتِ السبب بعد الله -عز وجل- في تغييري هكذا، أتعلمين أنني تركت الجامعة التي كنا ندرس فيها؛ فقط لأنني لم أستطِع مواجهتكِ! نعم تركتها لأجلكِ أنتِ، ولكنَّ كلامكِ لا يزال أمامي، حتى الآن لم أنسَ أنكِ وصفتِني بأنني جندي من جنود إبليس، لم أستطِع رؤيتكِ وأنا أنجذب لكِ يومًا بعد يوم؛ لذا قررت الرحيل؛ حتى أنساكِ، ولكنكِ لم تغيبي عني لحظةً كلماتكِ، نظراتكِ، عندما غادرت جامعتنا ذهبت لجامعة البوليتيكنيك الفرنسية (Ecole polytechnique) وهناك تعرَّفت على محمد زوج أختكِ، نعم، كان سببًا أيضًا في تغييري، كما تعرَّفت أيضًا على الشيخ طاهر عن طريق محمد، وبدأت رحلتي في اتباع طريق الله، كنت لا أدري كيف سألقاكِ ثانيةً، ولكنني كنت أدعو الله كثيرًا أن يجمعني بكِ؛ لأتقدَّم لكِ، وهنا كانت المفاجأة عندما تعثَّرتِ بي في حفل زفاف أختكِ وبعدها عرفت عنكِ كل شيء.

الآن قلت لكِ كل شيء، لن أرغمكِ عليَّ فالقرار قراركِ، ولكن أتمنى أن تمنحني الحياة إيَّاكِ فإن أصبحتِ زوجتي فستكونين هدية الحياة لي!

كانت عينا جويرية قد اغرورقت بالدموع، فما أعظمك يا ربي.. ما أعظمك!

لم تنطق جويرية ببنت شفة، واكتفت بمغادرة الغرفة سريعًا؛ حتى لا تنهمر دموعها أمامه!

وهنا دخل محمد ووالد جويرية وأخبرا فارس بأنها ستصلي صلاة استخارة وسيبلغانه بالرد.

تأتي لحظة فارقة في حياة كل إنسان لتنقلب بعدها رأسًا على عَقِب، يتخلَّى عن أشياء كان يظنها الصواب، ويفعل أشياء كان أبعد ما يكون عنها؛ ليكتشف أنَّها هي التي تستحق أن يحيا حياته من أجلها، إنَّها هدية الحياة لنا إمَّا أن نقتنصها أو أنها سترحل للأبد؛ لأنها لا تأتي سوى مرة واحدة في العمر، لذلك أراد فارس أن يتزوج جويرية وقد اقتنصها محمد من قبله عندما لم يتنازل عن حور زوجته ويسارع كلٌّ من عامر وطاهر في اقتناصها!

خرجت جويرية من غرفة الضيوف؛ لتهرب من فارس، فلو لم تغادر وقتها لاعترفت بما يكنه قلبها له!

خرجت لِتخرَّ ساجدةً لله عاجزةً عن نطق أي كلمة، بل عاجزة عن نطق أي حرف!

اختلج صدرها وانهمرت عبَراتها كسيلٍ جارف، توقَّف عقلها عن التفكير فكيف حدث ذلك؟!

أتلك الرؤى التي رأتها في منامها كانت حقًّا؟! وكيف لا وهي تتحقق الآن أمام عينيها؟!

كيف لا؟ وقد تقدَّم لخِطبتها ذلك الفارس الذي أسَرها وأسَر فؤادها معها!

لقد تغيَّر كثيرًا، أصبح شخصًا آخر، وأصبح قلبه لينًا ليس قاسيًا كما السابق، أكان قلبه لينًا منذُ البداية وهي لم تدرك ذلك؟!

بعضنا قد يتصنَّع القساوة؛ لكي يهرب من المواجهة.. قد يُخيَّل لمن يراه إنَّه بلا قلب وهو أكثر البشر لينًا! ولكنه يخشى ذلك اللين وذلك القرب من البشر؛ لذا يصنع حاجزًا فولاذيًّا؛ لكي لا يعبره أحد!

قامت جويرية من سجدتها وهي تهمهم وتذكر الله، وفور انتهائها.. التقطت هاتفها واتصلت على صديقتها حسناء؛ لتخبرها بتلك المفاجأة!

# «الفصل الرابع عشر»

ظلَّت شذى تخطِّط وتدبِّر المكائد؛ لكي تقنع والديها بعدم إعطاء فرصة لفارس، وتحولت أمامهما كما تتحوَّل السحالي، ودمعت من عينيها دموع كالتماسيح؛ لتفسد على أخيها فرحته، ولكنَّ أباها قد أخذ قراره بإعطائه فرصةً أخيرةً، وبذلك لم تنَل ما أرادته، فعلِمت في قرارة نفسها أنَّ حب والديها لفارس قد سكن فؤادهما وسيخضعان له عاجلًا كان أم آجلًا؛ لذا قررت أن تفسد عليه فرحته من خلال عروسه الجميل التي فُتِن بها، وبذلك تكون قد كسرت نفسه بل وأهانت كرامته، لقد أرادت تدميره كاملًا ونفسها وشيطانها يقودانها الآن وهي نائمة أو ربما تحت تأثير غضبها منه.

تعلم في قرارة نفسها أنَّ لا ذنب له في حب والديه له، ولكن لا بُدَّ وأن يدفع الثمن حتى وإن كان بريئًا؛ فهي أيضًا ضحية كما تظن!

لقد أتت لحظة المواجهة، تلك اللحظة التي يتهرَّب منها غالبية البشر؛ ظنًّا منهم أنها لن تأتي، ويا لبلاهة مَن يظن ذلك! هم فقط يخدِّرون أنفسهم ويَحْقنون دماءهم بمسكنات سيأتي يوم وينتهي أثرها وتبقى المواجهة!

فاتحت أم فاطمة ابنتها بأمر حبها لعمر ابن خالتها، وأخبرتها أنَّ ذلك الحب سيدمِّرها إن لم تتخلَّص منه!

أومأت فاطمة برأسها مؤيِّدةً لكلام والدتها وعقَّبت قائلة:

- أعلم يا أمي كل ما تقولينه، نعم.. أنا السبب في جعل قلبي يتألم، ليت ذاكرتي مُحيت مدى الحياة ومُحي من قلبي ذلك الحب أيضًا، لا سبيل لي في ذلك الحب،

فقد أحبَّ عمر أقرب صديقاتي إلى قلبي، لقد أحب حسناء! أتظنينني غير عاقلة يا أمي حتى أفسد على صديقتي وابن خالتي فرحتهما؟! لقد نسيته منذُ اللحظة التي علِمت فيها بذلك، ولكن أحتاج لبعض الوقت فقط؛ لأسترد عافيتي وثبات قلبي!

- ولكن يا ابنتي، ألَا تفكرين في طاهر؟

تفاجأت فاطمة من حديث والدتها عن طاهر وأجابتها قائلة:

- طاهر! ماذا به؟ ماذا تقصدين؟!

استجمعت الأم شجاعتها لتخبر ابنتها عمَّا أراده طاهر من أمر الزواج بها، فردَّت:

- أقصد أنَّه طلبكِ للزواج، وأرى فيه مثالًا للشاب المهذب، ألَا تفكرين؟

كيف ولِمَ؟ إنَّه لم يعرفني! امتلأ قلبها حسرةً ولكنها أبَت أن تُظهِر ذلك لوالدتها؛ حتى لا تقلقها عليها، فحاولت أن تجيب باعتدال:

- نعم، أعلم أنَّه شاب مهذَّب وخلوق، ولكن أريد بعض الوقت لآخذ قراري النهائي.

ألقى الصمت عباءته على كليهما! حتى قطعته والدة فاطمة قائلة:

- وأودُّ إخبارك بأمر آخر!

- ماذا يا أمي؟ فلتتحدثي! حتى لا تُقلقيني.

- عامر!

- عامر! ماذا به؟

- تقدَّم أيضًا لخِطبتكِ!

تجمَّد وجهها إثر سماع ذلك، وعلِمت لمَ جاءها يتقدَّم لخِطبتها، هو يراها مريم وليست فاطمة؛ لذا فهي لن تكون شخصًا آخر غيرها، فحسمت أمرها قائلة:

- لا، بالتأكيد عامر لا يشبهني البتة، علِمت مؤخَّرًا أنني أشبه مخطوبته السابقة كثيرًا، والتي تُوفِّيت قبل زفافهما بوقتٍ قصير، إنَّه ما زال يحبها وعندما رآني تذكَّرها حتى إنَّه أخطأ في أول مقابلة بيننا وناداني باسمها، أعتقد أنَّه يراني هي؛ لذا تقدَّم لخِطبتها هي وليس أنا! أمَّا طاهر فأنا أطمئن له أكثر؛ لذا سآخذ وقتي في التفكير، والله يقدِّم ما فيه الخير لي وله.

بعد موافقة حسناء على عمر وحدوث ذلك الحادث المفاجئ لفاطمة اكتفيا بعمل حفلة صغيرة ليلبسها خاتم الخِطبة، وحدَّدا موعد الفرح بعد إتمام شفائها؛ فهي بمثابة أخت لعمر وصديقة حسناء الصدوق.

وبعد مرور عدة أشهر اتفقا على موعد للزفاف وسيكون هادئًا ليس صاخبًا، فهما سيهنئان ببعضهما البعض بالسفر؛ لقضاء عُمرة بدلًا من صخب تلك الأفراح التي لا يستفيد منها سوى الحضور!

لربما الاختلاف يصنع حاجزًا بين البشر، يظن كل مَن يختلف عن الآخر أنَّه الأصوب وأنَّ الطرف الآخر عدو له، فيبتعد عنه حتى قبل أي مواجهة تحدث

بينهما، يحكم كل منهم على الآخر دون وجه حق، فماذا إن علِموا أنَّ الاختلاف لربما يصنع طريقًا واحدًا.

رفض والد جويرية فارس في قرارة نفسه بعد سؤاله عن عائلته، التي اتضح له أنهم أسرة ذات انفتاح شديد؛ لذا قرر أن يفاتح فارس في ذلك الأمر، فأجرى اتصالًا وحدد موعدًا معه في مكان عام؛ ليخبره بما يجول في نفسه.

على الجانب الآخر أخبر ابنته جويرية بأنه سيقابل فارس في مكان عام، وأوضح لها أنَّه يرى أنَّ عائلته لا تناسب ابنته، وأنه يودُّ عيشةً هنيةً لها؛ فهي فلذة كبده ولا يحب لها المعاناة وسط أناس مختلفين عنها وعن حياتها، لم تستطِع جويرية الرد على أبيها، فكلامه صحيح وهو الذي لا يخطئ أبدًا؛ فكيف يخطئ وقد علَّمته الحياة وأجبرته على التعامل مع أناس مختلفون، ويعلم النتيجة المعتادة، ولكنها ردَّت عليه أخيرًا، لا تظن أنها هي مَن ردت عليه، بل ذلك القلب الذي عشق ذلك الفارس هو الذي أبى الانسحاب، فقرر أن يحاول؛ حتى لا يندم أبدَ الدهر، وحاولت تغيير رؤية والدها قائلة:

- ولكن يا أبي ألَا ترى أنَّ فارس يختلف عنهم كثيرًا؟

هو صديق محمد زوج أختي حور، فلو لم يكن شابًّا خلوقًا لمَ أتى به محمد إلينا، ألَا ترى ذلك؟!

فكَّر والدها قليلًا ثم قال:

- أعلم أنَّه يختلف عنهم، ولكنَّ عائلته أخشى عليكِ منهم!

- وكيف تخشى عليَّ يا أبي؟ ألَا تثق بابنتك؟! أنا معك في أن تقابل فارس وتفهم منه كل شيء، أمَّا عن عائلته فلا تخشَ عليَّ شيئًا فكيف تظن بإنسان الله معه؟! هكذا قلت لي عندما سمحت لي بدراسة أحب التخصصات إلى قلبي في بلدٍ أجنبي، ألَا تتذكَّر يا أبي؟! أيُّ ذنبٍ اقترفه فارس لنأخذه بذنب والديه؟! إنَّه تحوَّل يا أبي كما قلت لك سالفًا، عرف طريق الله وعندما عرفه سارع في الدخول والسير فيه، ألَا تظن أنَّ والديه يمكنهما فعل ذلك إن علِما بالحق! نحن بشر يا أبي، وقد خُلِق البشر وخُلِق فيهم الضعف، البشر خطَّاؤون يا أبي.

- في كل مرة يا جويرية تُثبتين لي أنني أحسنت تربيتكِ يا حبيبتي، سأحاول أن أتعرف على فارس ولن آخذه بذنبٍ ليس ذنبه، وليقدِّم الله ما فيه الخير لكما يا ابنتي.

# «الفصل الخامس عشر»

حاول طاهر التقرب إلى عائلة فاطمة؛ ليقنع فاطمة بأن تعطيه فرصةً قبل سفره حتى يكمل عمله في باريس، لقد بقيَ له القليل في مصر ويودُّ أن يتزوجها وتذهب معه هناك، وزاد ذلك من طلبه عندما عَلِم بأنَّ هناك فرع آخر للشركة التي تعمل بها في باريس، ودَّ لو تعطيه فقط فرصةً؛ ليُثبت لها حُسن نيته، والذي كان يعينه على ذلك هي والدة فاطمة التي تخشى على ابنتها الحزن، وترى في طاهر مثالًا للشاب الخلوق الذي سيهتم بابنتها، فهي كأي أم مصرية أو عربية تودُّ أن ترى ابنتها مع عريسها وتطمئن عليها، ومع ذلك الإصرار وافقت فاطمة وفي قلبها غُصَّة ألم، ولكن خلال فترة قصيرة جدًّا استطاع طاهر أن يجعلها تعود أفضل ممَّا كانت، جمال قلبه وحسه الفكاهي ومشاعره النبيلة التي تظهر في أفعاله جعلتها تُعجَب به ليس حبًّا، فالفترة التي قضتها معه ليست كبيرة، ولكن رأت فيه الزوج الذي سيسعدها ومن حبه لها ستحبه.

فى أحد الكافيهات المشهورة كان والد جويرية يجلس مع فارس، وعندما سأله عن والديه تعرَّق فارس، وبدأ حديثه قائلًا:

- أعلم يا عمي أنك تخشى على جويرية وهذا حقك؛ فأنت والدها، ولكنها كانت هي سبب في تغييري؛ هكذا أنا كنت شابًّا طائشًا لا يعلم شيئًا عن دينه سوى بالكاد أو إن شئت قل: لا يعلم شيئًا، ولكن عندما علمت طريق الله وجدت الطمأنينة، والداي سيعودان أنا أتيقن بهذا، وأظنُّ أنَّ الله سيهدي جميع أفراد عائلتي ولكن أعطِني فرصة، أريد جويرية بجانبي وتظل جواري وأعدك يا عمي أنك لن تندم أبدًا، سأضعها في عيني ولن يستطيع أحد المساس بها.

انتاب والد جويرية ارتياحًا عند سماعه لتلك الكلمات من فارس، وجد فيه الصدق فلِمَ لا يعطيه فرصة! إنه شاب لن يجد مثله لابنته؛ لذا أخبره بالموافقة عليه، وعندما أخبره بذلك الخبر السار وجد فارس الشجاعة في نفسه؛ لكي يطلب من والد جويرية أن تكون الخِطبة عقد قرآن وأن يعجلا بذلك؛ حتى يسافرا معًا وتكون هي معه ويكملا دراستهما معًا، فلقد بقيَ عامان على انتهاء دراستهما.. أخبره والد فارس بأنه سيبلغ جويرية وينتظر قدوم عائلته إلى منزلهما، وحدَّدا موعدًا لذلك؛ حتى تتعرَّف العائلتان على بعضهما البعض.

كانت شذى تعلم منذُ البداية أنَّه سوف يتم الموافقة على فارس، لذلك لم تتفاجأ، بل ظلت تفكر كيف ستنتقم من أخيها حتى أتتها فكرة عزمت على تنفيذها، وحدَّثت نفسها قائلة:

- لقد حانت الفرصة لكي أنتقم لكِ، بعدما سأفعل ذلك ستكونين بخير، لن أشعر بالذنب تجاهكِ، ستهدأ روحكِ يا مريم، كنتِ الشخص الوحيد الذي يسمعني، لقد خطفكِ فارس بتهوره، خطفكِ أنتِ ومزَّق قلبي بفراقكِ، وماذا فعل أبي وأمي؟ سامحاه على قتلكِ! لن أسامحهما ما حييت سأفعل ما في وسعي للانتقام منه!

كان فارس فرحًا بموافقة أسرته وأسرة جويرية على إقامة حفلة الخِطبة بعد إسبوع، وما أسعده حقًّا هو تناغم الأسرتين عكس ما توقعه، فبرغم اختلاف عادات الأسرتين وتوجهاتهما إلَّا أنهما تلاقيتا في صفاتٍ معينة وهي الطيبة والأصل السجي، وميسرة أخته أحبَّت جويرية كثيرًا، وهذا ما جعله أكثر سعادة،

ولكنه لا يعرف ما هو شعور شذى، فلقد ظلت صامتة، تعابير وجهها جامدة، ولكن على أي حال فهو سعيد الآن.

# «الفصل السادس عشر»

وتأتي دائمًا الرياح بما لا تشتهي السفن، وهكذا تأتي أفعال البشر بما لا تشتهيه أنفسنا.. نتجمَّد حينها ولكن سُرعان ما نتماسك ونستعيد قوتنا التي خارت من أفعال البشر وخذلانهم!

أضاء هاتف جويرية؛ ليعلن عن وصول رسالة لها، قامت بفتح الرسالة وهي لا تدرك ما في جُعبة الرسالة من سُمٍّ ضُخَّ بعناية ليمزق قلبها ويفتِّته.

صُدِمت عندما رأت صورًا لفارس مع فتياتٍ شبه عاريات، لا.. بل هن عاريات، لم تتحمل تلك المناظر التي أذَت قلبها قبل عينها!

أدركت أنَّ تلك الصور قديمة من ذلك المظهر الذي ظهر به فارس، ولكن لا تدري لِمَ أحسَّت بنغزاتٍ متتابعة في قلبها؟ أحسَّت بأنَّ العالم يقف عند تلك اللحظة، دموع عينيها ذُرِفت وكأنها أمطار هطلت بعد غياب!

تمالكت نفسها وقررت أن تأخذ برأي برفيقة دربها، فأمسكت هاتفها لتتصل بحسناء، وبعد ثوانٍ أتاها الرد من صديقتها:

- يا أهلًا ومرحبًا بعروس الفارس.

- أريدكِ بشيء مهم يا حسناء.

- ماذا بكِ؟ لمَ أشعر بالتوتر الذي يملأ صوتكِ؟

- لقد أرسل لي رقم غريب على تطبيق الواتساب صورًا لفارس مع فتياتٍ في أوضاعٍ مُخلة، الصور قديمة وهذا واضح من المظهر الذي ظهر فيه فارس، أعلم

أنَّه تغيَّر كثيرًا، لكنَّ قلبي موجوع، أريد البكاء، مَن الذي أرسل لي تلك الصور؟! وماذا يريد من فارس؟!

- اهدئي قليلًا أرجوكِ، ذلك الشخص يودُّ بأن تتركي فارس، ولكنكِ كنتِ تعلمين ذلك منذُ البداية، تعلمين أنكِ أنتِ سبب تغييره! فارس شاب تائب الآن، والتائب من الذنب كمَن لا ذنب له!

- أعلم يا حسناء ذلك، ولقد رضيت بكل شيء ويكفيني صدقه معي.

- لكن السؤال الأهم الآن: مَن هذا الذي يحاول أن يمكر به؟

لم تعلنا الخِطبة ولا أحد يعلم عن أمركما شيئًا سوى أهله وأهلكِ، أتعتقدين أنَّ أحدًا من أهله فعل ذلك؟! لا بُدَّ وأن تُحادثيه ليس تأنيبًا له، بل لتصلا لمن فعل ذلك.

- هذا ما شغلني أيضًا، سوف أحادثه ليأخذ حذره، ولنعلم مَن ذلك الشخص.

قامت جويرية بالاتصال على فارس وقصَّت له كل ما حدث، صُدِم فارس في البداية ولكنه لم يستطِع التفكير لعدة دقائق، مَن ذلك الشخص الذي يحاول أن يدمِّر حياته بتلك الطريقة القذرة؟ ألَا يستوعب ما يحدث حوله؟

مَن يكون؟!

أتراه شخصًا من عائلته! وإن لم يكن من عائلته فمَن يكون؟ مَن ذلك الذي يعلم بأمره وأمر جويرية سوى عائلته؟ تضاربت الأفكار في رأسه حتى كادت

تنفجر! ولكنه اتفق هو وجويرية ومحمد زوج حور بأن يتابعوا ذلك الرقم الذي أُرسِلت منه تلك الرسائل؛ لمعرفة مَن ذلك الشخص! وفي تلك الفترة ستسير الأمور كما السابق، كل شيء سيُقام في موعده.

الأمور تسير بشكلٍ طبيعي، ولا أحد من عائلة جويرية أخذ أي موقف، لماذا ذلك؟

لماذا لم تتعرقل الأمور كما كانت تظن؟! عقلها كاد ينفجر من التفكير، ظنت أنَّ الحيلة هي السبيل الوحيد للانتقام من أخيها! ولكن باءت خطتها تلك بالفشل!

اختلَّ توازن شذى في التفكير وفقدت عقلها، فأمسكت بهاتفها لترسل إلى جويرية قائلة:

- ماذا بكِ يا فتاة، أعلم أنكِ قرأتِ كل الرسائل التي أرسلتها إليكِ مسبقًا، ولكنَّ الغريب هو عدم اتخاذكِ أيَّة ردة فعل!

هل ستكملين مع شاب هكذا؟!

لا يخدعكِ بمظهره الجديد، إنه قاتل!

نعم، أعني تلك الكلمة بحذافيرها، قتل أخته مريم، أتظنين أنكِ ستكونين بأمان مع قاتل!

قتل أخته وعاش حياته بكل تجبُّر! لم يحزن عليها قط، ولم يظهر عليه أي مظهر من مظاهر الندم!

إنه قاتل يا جويرية!

أعلم أنكِ أخبرتِه بما حدث، والآن تبحثون عن شخصية ذلك المجهول الذي أرسل لكِ ذلك، أنا سأخبركِ مَن أكون، وسأعلن حرب الانتقام؛ لكي يهدأ صدري.

أنا شذى.

لم تستطِع جويرية التفكير بعد هذا الكلام! فارس قاتل! مريم! أخته؟!

ما هذا كله؟

تحدَّثت إلى فارس لتُخبره بذلك الشخص، ولتفهم منه مَن هي مريم؟ وهل هو قاتل كما حدَّثتها أخته؟!

لم يجِبها فارس ولم يبدِ أيَّة ردة فعل سوى أنَّ عينيه اغرورقت بالدموع وطلب منها أن يغادر وسيخبرها بكل شيء، ولكن ليس الآن.

كان في ذلك الوقت يودُّ أن يصل إلى شذى بأقصى سرعة، ليسألها هل هي حقًّا تكرهه كل ذلك الكره؟!

هل قلبها يحمل له من الغل والحقد كل ذلك؛ لتتصرف معه بتلك الطريقة؟!

هل تودُّ الانتقام حقًّا منه؟! هل تراه سيئًا كل هذا الحد؟!

كان يفكر في كل تلك الأسئلة، تزاحمت رأسه، وعندما وقف أمامها لم يستطِع أن ينطق وكأنَّ الحروف حُشِرت في حلقه، فلا هي قادرة على الخروج ولا هي عازمة على العودة! فقط اغرورقت عيناه بالدموع!

لتفاجئه شذى بكلامها:

- ما الذي تريده مني يا فارس؟ نعم، أنت قاتل، أودُّ الانتقام منك يا أخي، كنت أقصد كل كلمة قلتها لجويرية، تلك التي أحببتها.. أتريد أن تعيش حياتك وأنت قاتل مريم؟! لن أسامحك يا فارس.. لقد قتلت أختنا!

قتلت مَن كانت أحب الناس وأقربهم إليَّ.. لماذا يا فارس؟ لماذا؟

ثم أجهشت في البكاء، حاول فارس الاقتراب منها واحتضانها ولكنها أبَت قائلة:

- ابتعد عني يا فارس، لا تقترب.

- لكِ الحق في كل شيء قلتِه يا شذى، نعم، أنا مَن قتلت مريم، ولكن حدث ذلك خطأً، أنا كنت السبب ولكن هذا قدر الله، تعلمين أنَّ مريم كانت الأقرب إليَّ أيضًا من بينكن، كنت أحبها أكثر، قد كانت الأقرب إلى قلوبنا جميعًا، أتظنين أنني قتلتها عمدًا؟!

نعم، أعترف أنني كنت متهورًا، وهذا الحادث كان بسببي أنا، لا أنكر هذا والله.. لكنكِ حكمتِ عليَّ بأنني لم أحزن عليها ولم أتألم لفراقها!

حكمتِ عليَّ أنني أعيش حياتي؛ لأنني متجبر!

حكمتِ عليَّ دون وجه حق!

أنتِ لا تعلمين كم تألمت لفراق مريم!

لا تعلمين كم تأذَّيت كثيرًا؛ بسبب ذلك الإحساس الذي يراودني منذُ ذلك الحادث اللعين!

لا تعلمين أنني ذهبت إلى طبيبٍ نفسيّ!

لا تعلمين أنني إلى هذا الوقت أتواصل مع عامر خطيب مريم!

الندم يأكل صدري وينهشه، أتعلمين أنني قررت السفر؛ فقط لأنني لم أستطِع أن أعيش في منزلنا ومريم ليست فيه!

وعندما أتت جويرية ذكَّرتني بمريم، لم أنسَها قط وأنتِ بعد كل ذلك تتهمينني بأنني أعيش حياتي وبأنني متجبر؟! بربكِ ارفقي بقلبي!

انهمرت دموعهما لتنمَّ عن حزنٍ دفين في قلب كلٍّ منهما!

ظلت شذى صامتة، قلبها ينتابه ندم يشوبه حزن على نفسها التي ظنَّت بأخيها هكذا! ولكنها لم تفعل شيئًا ولم تعتذر من أخيها، فبأي وجهٍ ستعتذر له؟ قلبها على مريم ما زال محترقًا، وزاد احتراقًا عندما علِمت بما في داخل أخيها.

يظن البشر أننا دائمًا تلك الصورة التي نظهر بها أمامهم، لا يعلمون كم الخوف والندم وأحيانًا كثيرًا الحسرة والخذلان الذي نعانيه! لا يدرون شيئًا عن الحرب التي تحدث داخلنا، تلك المعاناة التي تمزِّق قلوبنا إربًا إربًا، يحكمون علينا وهم

لا يدرون شيئًا داخلنا، يا لبلاهة مَن يظن أنَّ الإنسان هو ذلك الصامد كالجبل أمامهم، بل هو ذلك البركان الذي يكاد ينفجر!

علِم الجميع بما حدث من شذى وواجهتها والدتها قائلة:

- أهكذا فعلتِ يا ابنتي؟! أعلم أنَّ مريم هي توأمكِ الذي لا تزالين تتذكَّرينها دائمًا، لا تغيب عن مخيلتكِ، ولكنني أنا أيضًا والدتها التي لن تحبيها مثلما أحببتها أنا! لم نتخلَّ عنها مثلما تظنين، ولكن ماذا سنفعل؟ هذا ابننا وتلك فلذة كبدنا، أتعلمين أنَّ عامر خطيب مريم جاءني بعد أيام من الحادثة، قصَّ عليَّ آخر شيء قالته له مريم قبل موتها -لأنكِ كما تعلمين لم نتمكَّن من الوصول إليها قبل وفاتها- آخر شيء قالته له مريم: إنّ فارس لم يكن السبب في ذلك الحادث، هو لم يكن بوعيه، لم نستطِع معرفة مُلابسات تلك الحادث؛ لأن مريم تُوفِّيت وفارس لم يتذكَّر شيئًا!

- قلبي يتآكل عليها يا أمي، لم أكن بذلك السوء الذي تريني به، ولكنَّ الشيطان تغلَّب عليَّ حينما علِم نقطة ضعفي، وامتلأ قلبي سوادًا تجاه أخي، أتعلمين أن الليلة الماضية لم أستطِع النوم؟ كاد قلبي وعقلي ينفجران من فرط ما بهما! لست سيئةً يا أمي.

- أعلم ذلك، فقلبكِ نقيٌّ مثلنا، لا نحمل حقدًا ولا غلًّا لأحد، فكيف ستحملين كرهًا لأخيكِ؟ ولكنَّه الشيطان الذي جعل من حزنكِ على أختكِ بُركانًا من الغضب، سامحي يا بُنيتي، لم نكُن بهذا السوء أبدًا، أودُّ أن أعترف لكِ بشيء آخر، فنحن أيضًا لَعِب بعقولنا ذلك الشيطان اللعين، ظننا كل تلك الأعوام أنَّ

هؤلاء الملتزمات بشرع الله منافقات، ولكن لم نرَ من جويرية وعائلتها إلا الخير، الكل يمدح في أخلاقهم وسماحتهم، والأهم من سؤالنا عليهم أننا نحن من تحدَّثنا إليهم، وظهرت لنا أخلاقهم الطيبة ونفوسهم الذكية، الآن علِمت لماذا كان فارس متمسكًا بها لهذا الحد، جويرية غيَّرت فارس وأنا أعلم جيدًا أنَّه يثق تمام الثقة في أن تجعلنا نحن أيضًا نتغير للأفضل، سامحي نفسكِ وأخيكِ وادعي لمريم بالرحمة والعفو وأحبي جويرية، فإني -واللهِ- أحسست أنها مريم في أفعالها ونقاء قلبها.

- نعم، أحسست ذلك منذُ الوهلة الأولى لرؤيتها، ولكنَّ الانتقام أعمى بصيرتي وجعلني أفعل ذلك بأخي معللةً ذلك بأشياءٍ صُوِّرت لي، أتظنين أنَّه سيسامحني؟!

- بالطبع سيسامحكِ، فارس طيب القلب، ولكنه الآن كالجريح الذي لم يجد دواءً لجرحه، لا يصدِّق إلى الآن أنكِ فعلتِ كل ذلك، لم يصدِّق أنكِ تحملين كل هذا في قلبكِ يا شذى! حاولي أن تصْلحي كل ذلك وبأقصى سرعة، أثق بكِ.

كان فارس يتضوَّر ألمًا، قد أُصيب بصدمة ممَّا تظنه شذى به، كيف لأخته أن تظن به كل تلك الظنون؟! إن كانت هي كذلك فماذا يظن الذي لم يعرفه؟! شعور لم يعهده من قبل، ولكنه يظنه الخذلان.

الخذلان الذي يأتينا من أقرب البشر إلى قلوبنا، خيبة أملٍ يتعرَّض لها الإنسان، قد يأتي من ثقتنا الزائدة فيهم، شعور يشبه التائه أو رُبما الغريق الذي لا يصدِّق ماذا يحدث له! شعور قاسي، تضارب في أفكارنا ونغزٌ في قلوبنا، عقولنا ترفض وقلوبنا تحن ولكنَّه بات أمرًا واقعيًّا، صوت داخليٌّ يصل صداه إلى

السماء، يزيد كُلما شعرنا بالحنين، يذكِّرنا بأننا كنا أغبياء للحد الذي لا حد له! الخذلان يُفقدك توازنك، ثقتك في البشر أجمعين، تبتسم ابتسامةً عريضةً ورُبما تضحك بصوت مرتفع متذكِّرًا سذاجتك وثقتك بهم! يعقبه جرح لن تُطيبه الأيام مهما مرت، ولكنَّه على أي حالٍ يجعلك أقوى وأنضج من ذي قبل! الخذلان هو شعور يجعلك تكبر فوق عمرك عمرين!

حاولت شذى أن تعتذر لأخيها، تتودَّد إليه، لم تستطِع أن تعيده كما كان في السابق؛ لأن ما كُسِر لن يعود كما كان! سامحها فارس؛ لأنه تذكَّر عِلاته وتذكَّر إنَّه أيضًا لم يكن سابقًا كما الآن.

تأتي علينا لحظات نسامح فيها، لكننا لا نعود كما السابق، نتغير رُغمًا عنَّا، ننضج كثيرًا، تتبلَّد أحاسيسنا فتراتٍ من الزمن إثرَ صدمات تعرَّضنا لها وتجارب أرتنا حقيقة الأشياء، الأشخاص، بل حقيقة الدنيا بأكملها!

# «الفصل السابع عشر»

في تلك اللحظة نظر فارس حوله، أعقبه بنفسٍ عميق وابتسامة أظهرت بياض أسنانه، شعر بارتياح متذكِّرًا كل تلك العقبات التي مرت في حياته وقد طواها الزمن، مستشعرًا نعم الله عليه، يتساءل في عجب: كيف أنَّ صلابة الإنسان قد لا يكون لها حد، يمر بصعوبات ومشكلاتٍ يظنُّ أنَّه لا محالة من الهلاك الساقط حتمًا، ثم ماذا؟

ثم بعزيمته وإصراره ورغبته في البقاء تجعله يقاوم ويحارب كل إحساسٍ سيئ مرَّ به، حقًّا إن مشاعر الإنسان متضاربة!

فتارةً يشعر إنَّه يملك السماء بيديه من فرط سعادته، وتارة يشعر أنَّ الأرض بما رَحُبت قد ضاقت عليه وضاقت على صدره، أعوامٍ تَمر وتنقضي ولا يبقى للإنسان سوى أثره الطيب ووجهه البشوش ومعاملاته الحسنة، وقد صدق مَن قال: يبقى أثر الإنسان ولو فنيَ، فبمَ يفيد الكره والحقد بين البشر؟ فنهايتنا المحتمة ستكون تحت التراب شئنا هذا أم أبينا، فلنعمِّر الأرض بالخير والحب وكل ما هو جميل..

قطع شرود فارس صوت طفلة في السابعة من عمره تُنادي عليه:

- أبي.. أبي، أمي تريد منك أن تأتي الآن؛ كي لا نتأخر على سبوع ابن عمتي شذى، وأن تجري اتصالًا على العم طاهر والعم عمر؛ كي يجهزا أيضًا، فلديهما الكثير من المسؤوليات إزاء هذا الحفل.

ثم أمسكت بذراعيه تحثه أن يسرع.

ضحك فارس من طريقة حديث ابنته الذي يشبه كثيًرا عماتها مريم وشذى ثم قال:

- حسنًا يا مريم هانم، سنفعل كل ما تودين أنتِ ووالدتكِ قُرة أعيننا.

أتت جويرية إثر ضحكات مريم ابنتهما وفارس لتضع يديها على خصرها رافعةً حاجبيها لأعلى متصنعةً الغيرة قائلة:

- ما هذه الضحكات العالية؟ تضحكان معًا وأنا ومصعب غير موجودين معكما؟! تظاهرت بالحزن وهمَّت بالمغادرة، فأوقفها صوت فارس:

- وكيف لنا أن نعيش بدون جويرية رفيقة الدرب ومصعب قُرة أعيننا! لا نستطيع العيش بدونكما، ثم توجَّه برأسه إلى مريم ابنته؛ لتوافق على كلامه قائلة:

- بالتأكيد يا أبي، فأمي ومصعب أخي هما بلسم البيت وجوهره، فكيف نعيش بدونهما؟!

تعجَّبت جويرية من كلام تلك المريمية التي تشبه والدها في تلك الروح المشاكسة.

- ضحكوا جميعًا واستقلوا سيارتهم ذاهبين حيثُ بيت العائلة الكبير الذي يجمعهم كل مناسبة، فبيت الجد والجدة مهما مرَّ الوقت يبقى له رونق خاص في المناسبات، له رائحة خاصة معبَّقة بالأمان والأُنس والطمأنينة.

وصل الجميع إلى ذلك البيت العتيق وتجمَّع الشمل؛ ليعلن لنا عن إمكانية إصلاح كل شيء، وانتهاء كل ما يُخيَّل إلينا أنَّه لن ينتهي، فيمكننا الوقوف والصمود بعدما ظننا أننا هُلِكنا لا محالة.

تجمَّع الفتيات والفتيان؛ ليقسِّموا أدوارهم في العمل.. اتفق الجميع، فجويرية وفاطمة وحسناء قد حملتا مسؤولية تزيين البيت؛ استعدادًا لتلك المناسبة الرائعة، وفارس وطاهر وعمر ومعهم عامر قد كُلِّفوا بشراء كل ما يحتاجونه من زينة وبلالين، بالإضافة إلى تنظيم العقيقة بمناسبة ذلك المولود الأول لشذى وعامر.

أمَّا شذى فهي المسؤولة عن الاهتمام بالمولود الجديد..

انتهت المسؤوليات وبدأ الحفل باجتماع الأقارب والأحباب والأصدقاء، كان الجميع فرحًا، نظرات الحب والود في أعينهم تنمُّ عن سعادتهم في رضا من الله ورسوله.

وفي ظل تلك السعادة التي يشعر بها الجميع نظر فارس إلى جويرية وفي عينيه امتنان شديد عمَّا قدَّمته لعائلته، فقد كانت عند حُسن ظنه وهي مَن أدخلت على أسرته الحياة بعدما فُقِدت إثر فقدان ابنتهم مريم، لم تكتفِ بذلك بل تنازلت عن ذلك الاسم التي ودَّت كثيرًا أن تسميه لأول ابنة لها وأعطت عائلته مريم جديدة؛ تعويضًا عن تلك المريم التي فُقدت، كانت وستزال نِعْمَ الزوجة، لقد كانت بمثابة الغيث لقلبه، وهي تراه العوض الذي طالما تمنَّته، كان كما تمنت بل وأكثر، لقد أكرمها وأعانها في دينها ودُنياها.

على الجانب الآخر كان كلٌّ من فاطمة وطاهر ينظران نظرةً طويلةً لبعضهما البعض، كان طاهر العون والسند لفاطمة وبمثابة الابن البار لوالدتها، كانت تعتقد فاطمة أنها تحب عمر لسنواتٍ طوال، ولكنها اكتشفت الحب عندما تزوَّجت طاهر، فلقد كان طاهر الاسم والخِلقة، كان طاهر القلب حتى إنها كانت تقول لنفسها ما الذي فعلَته لتحصل على تلك الطاهر الذي لن تجد غيره رفيقًا وحبيبًا.

أمَّا حسناء وعمر فلقد كانا شبيهين في كثير من الأمور، لم تقتنع حسناء منذُ البداية بما يفعله عمر من أجلها، كان الخوف من تجربتها الأولى يأكل صدرها، ولكنَّ رحابة صدر عمر وتفانيه في حبها قادرًا على تغيير موازين الأمور، جعلها تحب الحياة كما كانت من قبل، أعاد لها طفولتها وطبيعتها العفوية التي افتقدتها منذُ خيانة ذلك الوغد، كانت تظن أنَّ الخيانة من طبع الرجال إلى أن جاءها عمر ونقش حبه في قلبها وعقلها، فلقد كان حقًّا نصفها الآخر.

وأمَّا شذى وعامر فلقد كان كلٌّ منهما عوضًا للآخر، وجدت فيه كل ما كانت تفتقده في مريم أختها وحبيبتها، قَرَّبها من ربها وشدَّ بأزرها، لم يذكِّرها بنقصٍ فيها، لطالما كان رقيقًا لينًا لطيفًا في نُصحه، لم يعنِّفها إذا أخطأت، عاملها بما أمر الله ورسوله، وهي كانت نعم الزوجة له، طيبة قلبها قد غلبت نفسها الأمَّارة بالسوء وعادت إلى رشدها!

الحياة عبارة عن محطات، في داخل كل محطة سنقابل أُناسًا منهم مَن يُزهر في قلوبنا ورودًا ويسقيها بالود والتغافل، ومنهم مَن يجعلنا ننضج أعمارًا فوق

عمرنا، نكبر كثيرًا، تتغيَّر أفكارنا تلو الأخرى، نؤمن بأشياء لم نتوقَّع أن نؤمن بها ذات ليلة! ونكفر بأفكارٍ كنا ندافع عنها بدمائنا! وها هي الحياة لا ثبات فيها ولا مُسلَّمات، التجارب هي مُعلمنا الأول والصادق، هي العدسة المكبِّرة للأشياء، تعلِّمنا أننا طالما لم نُختبَر بعد فلا يحقُّ لنا أن نحكم على الآخرين! طالما أننا لم نقف في وسط البركان فلا يحق لنا أن نلوم الآخرين، تعلَّمنا أنَّ الإنسان لا يحكم على غيره إن لم يكن قد تعامل معه معاملةً مباشرة، لا يحقُّ لنا أن نحكم بظواهر الأمور، فالحياة مدرسة مُعلمتها التجارب!

دائمًا ما تهدينا الحياة أشخاصًا تكون بمثابة هدايا الرحمن لنا، قد نظن ونعتقد أنَّ تلك الهدايا هي شر لنا في البداية لنظرتنا الضعيفة بالأمور، قد نتمنى زوالها بجهلنا! ولكن بعد فترة وجيزة سندرك أنها كانت عين الخير لنا وسبب سعادتنا وفرحها، فعندما تهديك الحياة تلك الأشخاص فاقتنصها ولا تُفرط بها!

«نظرة عشق»

تمَّت بحمدِ الله.

معرض القاهرة الدولي ٢٠٢٣

«د.مها النوبي»